BX2.A01C1901 v.4

Cal. 21 Oct. 53

٩٠١/٧/٧

أحمد عبد الجواد سالم

89278
S163iA
c 1

إلهام الفكر

دار الفكر الحديث للطبع والنشر
شارع فيرت اللاية

الاهـــداء

إلى الذين آمنو بأنسانيتهم ، فاعتصموا بجمالها ..

وتعقبوا حيوانيتهم : فطاردوا فى أنفسهم آثارها ..

وصاغوا عواطفهم : فكانت مزيجاً من رقة الحنان وقوته

وقدسوا جلال الفكرة : فقهروا ما دق واستعصى من محيط الكون الخضم ..

وانتزعوا من جوفه المبهم : لآلىء الحكمة ونفائسها : وأبرزوها للوجود :

واستوى لديهم : أعرف قدرها الناس أم جهلوه ..

إلى هؤلاء : وإنهم لقليل ..

أهدى كتابى . . .

فهرست الكتاب

المقدمة
الإنسانية تزحف
فى هجرة الرسول
فلسفه الحياة
الراية المنكسة
القدر الغريب
بسمة من النور
نفثة القلم
السحر الحلال
منحة تلد محنة
القلب السليم
السائحة الحائرة
السعادة وزوجها
مدرسة المروءة
الزهرة المسيطرة
هلال الربيع
الجوهرة المكنونة
بين الرياض
زهرة فى رعاية الشيطان

المقـــــدمه

« هو .. الألهام : لا لأنه من الفكرة نبع فحسب ، ولا لأنه التقط صورته من معين الأدب فقط ، وإنما لأنه برز إلى الوجود فجأة فلمع برقه : وهيىء له ما أراد ، ثم رجع إلى مصدره : لتنتثر له حباته وتصاغ له عناقيده : وتفصل له ثيابه : فتكون وصلة القارىء بالكاتب وتم كل ذلك . . فكان الكتاب . .

* * *

« وبين الألهام والفكرة اتصال وثيق : فبدؤه هى : ووجودها هو : وجمعهما يسمى بالعقل الإنسانى : كالسماء : طفلها النجم وشابها البدر : ومصدر حسنها الشمس : والكل تحت نور . .

* * *

« أبدا يعد الناس أن الشيء ينهك القوى : ويجعل الأعصاب تتأوه ويرسل حار الدمع من رقيق الجوارح . . وينزل عليك منه بعض قطرات همه : فينكؤك ويلؤك . هو النافع المجدى . المخلد المكرم . يفكر فى شأنه . ويعرف له خطره .

* * *

« وهـذا ما أمات فينا : أو جعلنا لا نبالي بما يطاقون عليه (عفو الخاطر) بيد أنه قد يكون من الجمال رسمة : ومن السلاف مورده : ومن اللب مأتاه :

عوالم النور لا ترسل أول ما ترسل : إلا شيئاً منها : يدلك عليها فإن صب الإنسان عليها شيئاً من شيطانه(١) : اضطربت : ولكن تسايرة : حتى يفسدها : فتنقلب جناية عليه : كزجاجة العطر : أول ما تنفخك عبيرها : فإن حرّفتها(٢) : مدتك بما تمدها به . .

والناس لا يجمعهم صدق : وقد يضمهم حق : فدائرته أوسع ونطاقه أشع : فلئن اختلفت الإلهامات : وتشعبت فى مذاهبها ونفحت الكون حين انسكابها . فعرائسها منبعثة من حسائن الإنسان . ومن هنا كان علوها وتفاوتها . (على حسب الأصل . يكون الناتج)

* * *

« بواطن الأشياء تبع لبدائهها(٣) أما شجرة النطق . فظاهرها منقاد لباطنها : وهو من عاملين فريدين : القلب والعقل . وعلى الثانى الرسم : وعلى الأول الإيجاد إذا سلم فإن كان العقل غير ذلك : تنازعا : وكل يعمل على شاكلته .

---

(١) بأن صرفه إلى الشر

(٢) حرف الشيء : أى غير فيه وبدل

(٣) لما كان الظاهر يعرف بالبديهة يولغ فيه : فكان نقمها .

« وللأعلى الغلبة فى كثير الأحايين . . وهذا فرع الغريبة الأولى. والنفس البشرية جملة فى حين وحدتها : فالشر طفيلى على الخير . . وكان موزعا : فضلا من الله ونعمة .

فبعض منها يسلك مسلك الروح : وهو عبارة عن الطفولة المقنعة تفكير فى الخير وإن لم يتم : وشروع فى الإصلاح وإن مات وقت ولادته : ونزعة الندم : وإن لم تؤثر .. وشىء ثان ينازعها : وهو لسان الصغار الحقيق . يبدل صدقها نفاقا . ووحيها شرآ . ومدها جزرآ . ونظرتها ضعفا : وسموها جبنا : وفى استسلام ابن آدم حينئذ هلاكه وبعضها الآخر الخلاصة لكل . وإما أن تكون نقية . وإما أن تكون ذبالة . .

وتدليه الروح جزء من إنسانيتها . وسوء عنصر(١) المرء أصل طبعه . وقد تترقى المقدمة . فينصهر ملازمها(٢) ويصلح . حتى يألم العنصر للسيىء . ويجاهد فى زواله (لا تذهب نفسك عليهم حسرات) ولا يكون ذلك إلا بالجهد والعناء الدائمين . ويسبقهما العقل السليم ..

. . .

« إن جنة المرء ذلك القيس(٣) الربانى . وتلك النفثة الإلهية .

---

(١) كناية عن نفسه
(٢) أى الفتيحة
(٣) هو العقل

وأول شروط الجنة الآخرة . نزع الغل . وذهاب الضغينة . وبعد السوء وخلع رداء الشيطان . فانزع هذا كله . وجرد نفسك منه . تستفد من قبسك . وتكسب رضا واضعه . وتنل خيرى الدنيا والباقية وتسلم من إخراج الضر الى من حولك . وتلهم الرشد والصواب . وتكون ابن الحقيقة البار ..

« وبالعقل تعلم بأن الله لحكمته البالغة . جعل من الرسل قسما . هم المبشرون المنذرون . وقسم معنويا . هو العقول الموجودة فى الانسان وكل رسول هو العظمة فى ذاته وقد يناوأ ويراجع . فيفيد بجمعه . ولا يستسلم له جمعه . وكذلك العقل هو جوهر الصفاء . وربما يفشل فى بعض خططه ونتائجه . وبهذا كان محتاجا الى أن يسير بالحكمة ويحاط بحدود الحق . .

وكان الله قادراً على أن يجعل مجموعهما مسيطرين بالقوة لا بالحجة . ولكنه سبحانه خلق النار . وجعلها جزءاً لبعض الناس .

. . .

« ولئلا تكون للناس حجة فى غرورهم بفاتنات الحياة : وخادعات الأمور : وألسنة التلصص : أنظر إلى حقيقة العقل : وكيف تسير الجسم على ضآلتها وبساطتها : وحين تنزع : فكر فى كلمة مجنون... ولقد استأدى الخالق على جميع الآدميين ميثاقه : بأنه لايحاسبهم إلا والعقل

فيهم: ضرورة أنه لابد منه : ولولاه لكان الإنسان عظمة لحم : أو ورقه مر أو دمعة جفن : بكى : فارتسمت(١) على خده : لتبعث الحسرة فى كل ناظر : والألم عند أى مفكر ...

وكل طبيعة جبلت على طبيعتها . فليس هناك حلو من مر : ولا مر من حلو : إلا طبيعة النفس : فاللذة الحقة فى إمرارها وكرهها : والسعادة الدائمة تنتزع من بين مخالفتها وإغضابها : والفوز المبين ينتفى إذا أهملت سورتها وجمحاتها : وأى(٢) منتزع : لابد له من نازع : وهو الانسان : أى عقله : أى النقطة المتسلطة على التدبير فيه : فهلا كان أولى وأولى بشىء(٣) أوله الغرابة : ورؤيته الحيرة : وعالمه الدهشة : أن يكون غريبا فى بقيته : فيطبع نفسه على الخير : لأن الخير غريب عندها : وذليل لديها .. ؟

* * *

« وبين العقل والحياة كلمتان :

هو : سأتغلب عليك :

هى : سأهزمك أيها الجبار العنيد .

* * *

---

(١) لأنها حينئذ تكون متجسمة ملموسة : فهى أشبه بهيكل المجنون فى أن كلا منهما رسول الأحزان

(٢) مثل وكل منتزع :

(٣) المراد بالشىء هنا بنو الانسان

« وأما الأدب : فهـــو الحساسية تطفو على البشرة : وتعلق بظاهرها : فتجعلها مزيجا من نور الطبيعة : ورقة المزاج : فترى كل شيء : كأنه لها هى : وتنظر اليه لتستشف معانى حياتها : وتستنشق من رحيقها دليل خلودها : وهنا اتصاله بالعقل : وتستلب من خاصها متعة روحها : ومن عامها : تهذيب نفسها : ثم ترق حتى تنسكب جمالا على ماحولها : فلا تبصر العين غير مايبهج : ولا ينقطع عن القلب تفتحه وانتعاشه : ولا يكتنز الصدر إلا لآلىء الحكمة : ومكنونات الجواهر : ولا تخرج آلة الكلام إلا درر النبالة : وعقود الكلمات : التى تختطف قلبك بحركتها : وتهز مشاعرك قبل أن يتفوه بها .

ثم تنبل : فلا تحكم على القشور بأنه جمال : ولا تتحمل القرب من السفاسف : ولا تستطيع البعد عن دائرة الوجدان الحى : والضمير الحر الأبى . .

* * *

« وكأن الطبيعة قالت للأدب : أنا أنت : فحين يعرفك العارفون ويشفف بك الواهون : فقد عرفونى وقدسونى : وخضعوا لجمالى : وارتووا من محاسنى ..

« وهل هو من خصائص العقل أو القلب أو كليهما . ؟

ألا إنه اجتلاء الوجود وبهجته : وقرة النفس وفرحتها : ومحيط غريب غريب : لأنه من سماء الى أرض : ومن أرض إلى سماء .

لا يسبح فيه إلا من انخلع من عوارضه : وبز فى نظراته : ورغب عن نزواته . وطلق قيود شهوانيته : فسما عن خسيس عاطفته : إلى رقيقها وعاليها : وطاهرها ونبيلها . وكل بحر له عمق وإن بعد سفله : إلا هذا المحيط : فعمقه أنت لاهو : فعلى قدر وصولك وحيويتك : يكون معرفتك فيه : ووقوفك منه : فتعمق يبهجك : ولا تركن : يطردك فتلقى فى سعير نفسك ملوما مدحورا .

« وكل حى على حذر من عجائب الأشياء . وأشياء الأعاجيب : يراها فيرمقها لفتنته : ثم تنتهى ببسيط إعجابه : وهين روعته . لكنه إذا تقدم فى هذا العلم : أحب هذه الأعاجيب : ورأى فيها ارتياحا مستساغا . وهدوءا موفورا . واستنبط منها ما يلذ من أسرار . وما يعرفه من نظريات . وإذا كان هو يولد من الحقير جملا . وينظر فى سم الخياط جبلا . أفلا يرى فى الأعاجيب عجبا . ويخلق منها جواً سرباً . ؟

بل إن كلمة موت تكون حقيقة عند مطلق رجل وأشدها عند المهجور الملذوع . ولذة عند المتمتع بالوصال . القريب من رضا الجمال .

أنظر اليها وهى تخرج من الثانى . فيلفظ فيها أنفاسه . ويطرح بينها أحشاءه . ويخللها بنبضات عروقه وقلبه . ويتمنى لو تحققت . فبرزت نفسه ببرزتها .

ثم ارسل اليها بصرك . وهى تخرج من الأخير : فيطبق عليها

شفتيه : حنانا لها : وحدبا عليها : وحباً فيها . ولولا النطق وأثر الترنم به : لما نطقها وتكلم بها .

والله خالق السماء والأرض . إنها لتخرج كلمة فى كلمة فى كلمة حتى تصل الى مصبها .

« * »

« لو أن الانسان رق حنينه . لتذوق هـذا المعنى على أحقيته . وأحسه على ماهو فيه : وعرفه كما هو .

وإنه ليفضله على كل شىء . وينسى كل شىء . يرى فيه رى عاطفته ويقتبس منه نبع فؤاده . ويرتشف من سلسبيله ماء حياته . ويستودعه جميع أمانيه وآماله . وانه حينئذ ليخنق فيـــه كل غرض دنىء . أو قصد ردىء ..

حتام يجهـله الجاهلون . وهو فى كل لحظة أمامهم . يظهر مع الوردة . ويبسم مع الضحى . ويشرق فى الجبين ، ويترنح فى الأزهار يقبل مع الليل ، ويأتى بالنهار ، ألا إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار

« * »

« وهناك ناحية ثالثة . إذا أفيض عليها شعاع من الروح . إنجاذبا وتطارفا . وتندّرا . كأن رائعا قابل أروع منه . ولم يكن بحسبانه ذلك . هى الجمال . لو أنزل خيط من السماء . وصعدت عليه ذبابة .

لقطعته ، ولو حبست ضآلة شعاع من الشمس : فى مشكاة ضيقة مظلمة ثم أمررت فيه يدك ، لفرقتها من أجزائها : ولو مددت سببا بينك وبين آخر ، وحال شىء ثالث ، إما أن لاينفذ ، وأما أن ينقطع : ولكن لو بعثت بنظرتك الى الجمال ، ماذا يكون ؟ ألست تشعر بأن روحك قد تنقلت مع هذه النظرة ، أنى سارت . وأينما حلت ، فاذا ماتلقت رسالته ، رجعت نشوى ، تميل من السكر ، وتهيم من الوجد ، ولو كشفت الحوائل ، ووجدت الموانع :

هذا فى تسخير الطبيعة ، وهى الآن فى القوة المسخرة للطبيعة ، وهذا فى عالم الحدود والمنقول ، وهى الان فوق التصورات والمعقول صفت حتى ارتضاها ، وأرضاها حتى غرقت ، وأخفاها حتى وصلت وأوصلها حتى كانت اللا نهاية مطلبها ومبتغاها : واللاشعور بالعذاب حقيقتها وطبعها .

* * *

« اضطرام وسعير ولظى ، هم ثلاثة أبواب لنار الدنيا ، ولك أن تجمعها فى باب الجمال ، فالتعلق به مفتاحها ، وعدم تنزيله مكانته ، هو قفلها ، قفلها الذى يحجبك عما فى داخله ، ويزيد عندك اشتعال هذه الثلاثة ، فهو يعمل عملين ، الحساب والعتاب ، وآه منهما ، من نوقشهما هلك .

* * *

« صمته عين الكلام ، وكلامه فوق الرعد ، وإشارته تقول لك ، لايهمنى نحو لك أو أنينك : وكلما تعقبته ، وجدت أن كل نظرة أولى من جنسها ، وكل لفتة فريدة فى نوعها ، وكل طرفة تفوق مثيلتها ، وكل صوت تفهم له معنى جديدا ، ويحدث عندك خفقات أخرى ، فياله من غريب . وياله من عجيب .

« أما اتصاله بالعقل ، فاتصال ملك بأحب جنده ، وكبير حاشيته يفرض عليه سيطرته ، ولكن ليتأدب : ويرغمه . ولكن ليقبل ؛ ويصهره ولكن ليحب ، فهو به رؤوف : وعليه حان ، لو استقام ، وإلا بدده تبديداً ومزقه تمزيقا .

* * *

« تلك جهات كتاب الإلهـــام . وقد علمتم سبب تسميته

تلألأت بهجة الطبيعة : فتبعتها الباصرة ، فصرفت إنسانها عن سواه ، ثم اختلست خيطا من خيوطه ، وأغمضت جفنها عليه . ولكنه سحر الأعصاب ، فرفعته الى أداتها(١) العاملة : فاذداد شغفها به ، ثم شع نوره على ضبع(٢) الحيوية فى الجسم ، فكثر تعلقه به ، واستبقاه ، فأبى الخيط ، وترك أثره ، فنبع الألهام .

* * *

---

(١) العقل
(٢) القلب

« يعلم الله ويشهد ، أنى ماقصدت به إلا ما أراده منى هـو ، فلا يهمنى ، أصادف ثناء ، أم لاقى تهاونا .

حسبى به قارىء يعرف الأدب ، وقيمة الأدب : وفائدة الأدب ، حسبى . حسبى . وكفى .

* * *

احمد عبد الجواد سالم

الانسانية تزحف .. الى المدينة

« جنحت الشمس نحو المغيب : فعمّ الوجود صمت رهيب : وهذى قريش تبغى أذاها : وتلك جموع ترى (١) قتل الحبيب : وهاهو الليل باسطا رداه : على الكون : ليستروح المكدود : ويأوى الغريب : ..

* * *

« ويسّاءل الوجود مستغوباً : عن هؤلاء الطغاة : لماذا يسعون فى ذا الوقت الكئيب : ولأى شىء يرصدون محمداً : ؟ بسيوف مصلتة : وعيون يطّاير منها شرر اللهيب : أهل يريدون حراسته : أم ينتوون غدره وخيانته : ؟ إن حالهم لتوقع فى شك مريب : ؛ وإلا فماذا جناه رسول كريم : ؟ حتى يحاط بهذا الويل العصيب :.

* * *

« أذنب أن قال أعبدوا ربكم : ؟ واتركوا الفرق بين الحسيب وغير الحسيب : فليتول المعبود حفظ نبيه : وليخبر رسوله بذا النبأ العجيب : وبسرطه رغم أنف الجميع : حيث طيبة : وحيث أمر الله المهيب : وليفعل القوم بعد ذاك ما شاؤوا وليشب فتيانهم . وليرع من أتاه المشيب :.

---

(١) من الراى لا من الروية

« ماكان ربك ليترك عبده : وهو على كل شيء رقيب :

* * *

« وإن أليق ما يوصف به سيدنا محمد : أنه كان غريبا فى كل أطواره : جديدا فى كل أفعاله : عظيما فى جميع حقائقه :

* * *

« وهذه أمور لازمته طفلا وغلاما وتاجرا : فلتلازمه رجلا ونبيا ورسولا : وإذا : فليهاجر محمد من بلده طوعا أوكرها : وليودع هؤلاء القوم : حقدوا عليه فى قرارة قلوبهم : وأبوا أن يستمر حقدهم كمعناه : غامضا مبهما : فأظهروه على مسرح الوجود : ثم أنفوا من بقائه معنى صامتا مهملا : لاحراك فيه ولا سكون: فأبدوه فى كل شيء : !

* * *

« فى كبريائهم الجامحة : واشمئزازهم المتكاف : وصلفهم الجاف : ووقوفهم أمام الحق وقوفا جامدا صلدا : لا يقبل نقاشا : ولا يرتاح لتفهيم ..

* * *

« وإنما هو وقوف ينبذ منه كل شر أثيم : ويتولد من حرارته سعير يتلظى : وزفير يتلهب : ونيران تحمى وتعذب :.

« وما أشبه هذا الوقوف بهذا الحجر الأصم : تأتيه الطائرات الحمر من الرصاص : فتثبت فيه : ولكنها لا تؤثر فيه ..

وليس من فرق بين هنا وهنالك : إلا أن الحجر لا يصيبك منه شيء : أما قريش فقد كانت تصيب بكل شيء :.

* * *

« لقد أمرت النبي أن يرجع عن دينه فأبى : فقامت قومتها : وعزمت عزمتها على أن تقاطع محمداً وأتباعه : وقاطعت : فوقع النبي وأصحابه فى جهد جهيد ه وألم مضن شديد :.

* * *

« ولكنه لم ينثن عن مبادئه : ولم يرجع عن دعوته : بل كان الشخص الذى عظم ونبل : حتى أضمر فى هو : ليتضح ظهوره : كلما أريد حفاؤه كقبس النور : إذا حلك الظلام حوله : زاد بريقه وضياؤه :

* * *

« وهنا أخطأت قريش إذ اعتقدت أنها أصابت : وهل حرقة الآلام وشدة العذاب : تزيد المومن إلا قوة واستمساكا : وثباتا ويقينا : وطمأنينة واستقرارا .. ؟!

* * *

« فبالغت قريش من ناحيتها : وبالغ النبي من ناحيته: حتى تغلب صوت الحق على طنين الباطل : فانحصرت دائرة المشركين : وضاقت ذراعها : وعلى قدر انحصارها وضيقها: كان انفراج الدائرة الأخرى وانبساطها :

* * *

« وإذا : فلا عجب أن يكون بدء التفكير فى قتل النبي : والسعى فى القضاء عليه : بدءاً و سعياً آخرين : فى ظهور فجره : وانبثاق هدية : وتجديد حياته .

* * *

« فليخرج هذا العالم الجديد : فى ظلام الليل الشديد : إلى ذلكم البلد المجيد : لينشر فيها هذا الدين السماوى الوحيد ..

. . .

« ولئن كان من الصعب أن يفارق المرء أهله ووطنه : فأن الشقاء كل الشقاء فى أن يفارق ضميره وعقيدته : ومن القسم الأول كان حزن النبي العميق : ومن الثانى كانت السلوى والعزيمة . وولا الصبر والعزاء . والقدوم على التنفيذ من غير ما تعليق ...

. . .

« مجموعة من الغيب تساير الغيب كله . لتقول له .

أنا منـــك : فساعدنى بقوتك : ومدنى بألهامك . وأسعفنى بأقدارك ..

* * *

« وإن كثيرا من الناس ليكون أشباحا فى هذه الحياة . فما هم إلا هياكل جسمانية . سرت فيهم الروح . فتحركت . فنطقت . فأكلت بعد ذلك وشربت . وهذا القسم من الناس أوله نهايته . فكما لا ينتفع بمبدئه كذلك لا ينتفع بآخره .

* * *

« وقد يكون من الناس الرجل العظيم . فهو إن لم يتخلق بكل الأخلاق الفاضلة . فهو متخلق بأكثرها . وهو إن لم ينصف بجميع الصفات المحمودة . فهو متصف بأغلبيتها . وهذا القسم له أثره وله خطرة فى المجتمع الأنسانى . لأنه يأخذ ويعطى . ويفيد ويستفيد ..

* * *

« وهناك .. وهناك الحى النوارانى الأعظم . وهذا لا بد أن يتمثل فيه قالب العظمة الكلية . فأن مدته الحياة بقوانينها . مدها هو بفضائله . وإن كسته بمنافعها . كساها هو بهيبته وجلاله . وهكذا أكان نبينا محمد . صلى الله عليه وسلم ..

« فلقد بلغ حب الحياة له . وشغفها به . وحنينها اليه . أن تمازجت به . وتفانت فيه . حتى كان شفافا شفافتها . وحتى كان لا ظل له مثلها . وحتى ليحدث . أنه يمر أمام جماعة يريدونه ويرصدونه . وينتظرونه ويتفقدونه . ولكنه يمر فلا يشعرون . ويمشى فلا يحسون . ويبرحهم فلا يدرون . واذا بهم وهم فى النوم غارقون .

. . .

« وإذا بهم وهم على هذا حتى يصبحون . وعن الذى أتوا من أجله ساهون . ثم يرجعون ضلالا حيارى . تصّعد الزفرات فى صدورهم . وتنحدر الأنات إلى قلوبهم . ويمزق الأسى شغاف نفوسهم . .

. . .

« كأن المقادير تعلنهم . جعلتم المادة كل شىء . وصرفتم نحوها كل أفكاركم وبمتم شطرها كل آمالكم . فارضخوا إذا لأضرارها التى ستلقيها عليكم .

. . .

« وترفرف سكينة الله على النبى هنا لك . وتتأرجح فوقه . وتحدو حوله يمنة ويسرة . فينظر إلى صاحبه : فيحس منه وجلا . فيقول له (لا تحزن إن الله معنا) فتذهب لا بخوف صاحبه . وتأتى ان

بالطمأنينة والاستقرار . أليس بعدها الله وهو العزيز الحكيم . ؟

. . .

« ثم يسكب الرسول وصاحبه فى حرفى (مع) لكى يتشرفا بأضافتها الى نون العظمة الربانية . فيحيط بهما سياج هذه العظمة . فلا يراهما الكفار وأعوانهم . فيرجعون خاسئين مدحورين . ويمكثان هما آمنين مطمئنين .

. . .

« عظمة الشخصية هى النقيض الوحيد لعظمة الدنيا . لأنهما لا يجتمعان . بمعنى أن الانسان قد يصغر ويتضاءل . حتى يكون قبضة فى الدنيا . وقد يعظم ويسمو حتى تكون هى قبضة فى يده . أما أن يعظم الشخص وتعظم الدنيا أمامه : فهذا هو التفسير الذى لا حل له لأنه التفسير الذى لا دخل للعقل فيه . .

. . .

« وإنسانية رسولنا الكريم : هى الإنسانية الملهمة . التى استطاعت أن تخرج معانيها من محيطها . كما تلد المرأة طفلها من أحشائها . وبذلك كانت الأم الرءوم للعظمة ونبالتها : وبذلك كانت الدنيا على سعتها . وبذهبها وفضتها . قبضة فى يدها : وإذا ملك الانسان الشىء زهد فيه . وبذلك كانت أجود من الريح المرسلة . وأكثر فيضانا من المحيطات الواسعة . . .

« ولهذا كله يعرض عليه أبو بكر أن يتولى هو نفقات الرحلة إلى المدينة . فيقسم . إما أن تقبلن الشركه . وإما أن أقطع صحبتك ! !

. . .

« وما له والدنيا . أيجوز للبدر أن يطمر نوره بغرفة من التراب؟!

. . .

« ما أعظم الآمال تتلاقى فى عالم الوجود : وما أبدع الأمانى تصدق فوق عرشه . وما أروع هذين الصاحبين . يجدّان فى السير . وكلها رغبة فى هذا المسير . وما أعظم ذلكم المشهد . ينتظرهما كل يوم فلا يردهم : إلا حر الرمضاء . وشدة الهجير . .

. . .

« جلائل الأشياء . من غريبها أنها كلما أريد تنقيصها . ظهرت قيمتها . ووضح سموها . وأثر طابعها . وهذا هو السر كل السر فى خيبة الفرس التى تبعت النبى وخله . لكى يظفر صاحبها برسوم قريش المالى . وهل هذا الرجل بفرسه وغرضه إلا قطعة من المادة الحقيرة . وربك : هل المادة إلا ظلمة . فماذا يكون شأنها إذا وضعت بجوار شمس . ؟؟

. . .

« إنها تذوب . .

ولقد ذاب الرجل .. فرجع مسلما(١)

. . .

« تالله العلى العظيم :

لولا بعض الانسان لفضل الجماد على البعض الآخر : لأنه بعامته لو عقل : لآمن به كما آمن شيء منه . ولا يحمد ويكابر كما حجد الانسان وكابر . فبؤسا للحيوانية . تطفو حتى تفرق فيها الإنسانية . .

. . .

« وتدخل البشرية الفذة . تلكم المدينة المنورة . .

. . .

« وإذا بالدهر يطلع على أهلها بأسعد طلعاته . ويلاقيهم بأبهى حالاته . بل ظهر لهم . كأنه محتاج لرضاهم . ومتلمس للحفاوة بهم . وكأنه يقول لهم . هذه هديتي إليكم . فطيبوا نفسا . وتمتعوا ما أحسنتم المتعة . واهنأوا ما وسعتكم الهناءة . ثم يصمت الدهر . لينظروا هم ويشاهدوا . وليطفئوا لظى هذه الهاجرة . بسلام ذلكم القلب الانساني الكبير . . ويبهجوا أنظارهم ببريق هاتين العينين . المملوءتين لجلال الحق . ونور اليقين .

. . .

« قطرة المسك كغيرها . ولكنها حين تنسكب . تبلغ في جزئياتها

---

(١) إن ثبت القول بأسلامه كان الكلام على ظاهره : وألا كان لفظ (مسلما) من التسليم والانقياد

كليات ما حولها ، فلا نشم إلا رائحتها . ومن هنا فاقت غيرها . . وهكذا النور النبوى . حينما يشع . غير أنه يزيل ذلك الغير . ومن هنا فاق العطر نفسه . وغير أن أثره يبقى ويتجدد . ومن هنا أيضاً فاق رائحة العطر وآثاره . .

. . .

« ولذا ، كان النبى حين دخوله المدينة ، دليلا على صدق الرسالة وسعة محيطها ، وبعد مرماها وخامتها :

وكان أبو بكر بجواره دليلا آخر : من صنف آخر . على مقدار تأثيرها فى النفوس . وسموها بالأرواح . .

. . .

« المعنى الجميل الرائع . إذا ارتسم فى الذهن : أبت ووعته إلا أن تبقى وحدها . لحظتها . فهى تستولى وتسيطر : ومع ذلك : فلا يأنف الفكر أن يظهر لها نشوته وطربه لذلك . ويتمنى لو بقيت مسيطرة عليه . .

وكذلك الاسلام : عندما يطبع فى النفس يأبى إلا أن يكون وحده ويستبد بصاحبه . فلا يزيد عليه إلا إقبالا .

« ويعلوا أمامه . فلا يزيد الشخص إلا حبا فيه . واعتناقا له . وخضوعا لسلطانه وقوانينه .

والحق الذى لا مراء فيه : أن هذا الدلال الاسلامى ، إن هو إلا السمو فى ذاته . فهو يريد أن يرتفع بك ، ولكن يريد أن يقول لك ، قدم المهر ، لكى تكون الرفعة من حقك ، ولا يمشى عليك أسلوب المنحة ، فأول درجاتى العزة ، وهى لا توجد إلا إذا كانت بدء عملك ونهايته

. . .

« وبرهان هذا خشوع المؤمن الحق لواجباته . ورهبة هذا الخشوع ذاته أمام ناظريه ومشاهديه

. . .

« ومن هذا المعنى كان تأثير النبى ورفيقه على أهل المدينة »

. . .

« فقد أقبلوا على هذا الدين ، إقبال ذى الغلة الصادى على الماء النمير ، فارتشفوا منه ارتشافا ، وعبوا منه عبا ، حتى إذا امتلأت به قلوبهم ، أفاضوه على بقية أجسامهم ، وحتى اذا استقامت على شريعته ظواهرهم ، أقاموا عليها بواطنهم ، وحتى إذا علمهم الجود والكرم لا يكتفون بهذا فحسب ، بل يؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ، وحتى إذا بث فيهم روح الأخوة والأخاء ، لا يقتصدون فى هذه الاجابة ، بل يذهبون بها أبعد المذاهب ، ويشقون فى سبيلها

أصعب الطرقات ، وحتى إذا طلب منهم القتال والاستشهار تقدموا إلى ميدانه فرحين ضاحكين ، وهم فى أقصى درجات الحرص على هذه الشهادة ، وحتى إذا تحققت فيهم هذه الظاهرات كلها ، ضمهم النبى إليه ، وجمعهم بين يديه ، ثم قال لهم

« إنما أنا من الأنصار ، والأنصار منى ، ألستم ترون أنه لو كان هناك جيشان ، لأويت الى جيشكم وانضممت الى سربكم ، ثم يتلو عليهم هذا النطق السماوى الكريم

« من المومنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا »

. . .

« إن أعظم شىء عند الزهرة الزابلة أن تقدم لها قطرة ماء ، وأروع ما يكون لدى الجمال ، أن تظهر له اعجابك به ، وتقديرك له ، وان الانسان عندما يترعرع الايمان فى قلبه ، يكون كالزهرة فى تفتحها ، وكالجمال فى روعته ، وحينئذ فهو فى احتياج الى من يغذو روحه بمائها ويظهر له أنه مهتم بشأنه محافظ على سعادته .

. . .

« ولما كان أهل المدينة من قبيل هذا . رأى الطبيب الاجتماعى الأعظم أن أسمى شىء يقدم لهم على سبيل مكافأتهم . معنى يساق لهم

كذلك الحديث . فصلوات الله على قائله . ورضوانه على الذين قيل فيهم . . .

. . .

« وهل المعانى الروحية تقابل بشىء . ؟

أنظر إلى المنة العظمى . يمتن الله بها على أهل جنته . ونزعنا ما فى صدورهم من غل، فهو يريد أن يبين أن النفس إذا انغمست فى ظلماتها لا تعتبر ولا تقدس إلا الماديات . وإذا رقت إلى نورها . لا تنظر إلا إلى المعنويات . وهذا الحكم سائر فى الدنيا والآخرة فكما أن الغل لا يكون فى الجنة . لا يكون فى قلوب المؤمنين أيضا . وكما أن نعيم أهل الجنة روح وريحان . ينبغى أن يكون نعيمهم الخ.

. . .

« نعيمهم فى الدنيا من الجوهر عينه . وإن اختلف فى الشكل : وهذا هو الذى دفع النبى على أن يلقى لأهل المدينة هذه الموعظة الأخاذة بالقلوب .

. . .

« وفى هذه البطاح المطهرة رفع شأن الدين : وكان مختفيا . وظهر لواء الحق وكان مختبئا . وقويت شوكة الدين . وكانت مهينة ضعيفة »

. . .

« الكبرياء تضغط على ما حولها بقوة منتزعة مدعاة . فهى تزيد وتنفص . حسب من أمامها . ولكن الفضيلة تتسلط على ما حولها بقوتها الطبيعية التى لا تتغير ولا تتبدل . فهى ثابتة أبدا . لأن عليها طابع الخلود . ولذا فتجد النفس المتصفة بها من علامتها أنها لا يبطرها الغنى . ولا يلعب بها سلطان الزهو والفخر . ولا يتسلط عليها تيار الغرور والحمق .

« ومن هنا يعلم لم لم يؤثر ظهور محمد على نفسيته المنتصرة . ولم لم يغير شيئا من إنسانيته الفائزة . ؟ بل كانت فى الثانية عينها فى الأولى .

. . .

« ها هوذا سيدنا محمد يظفر . وينتصر . ويملك . فماذا يعمل ؟ ؟

. . .

« وقف يسمع نجوى نفسه . ويتلمس أحاسيس قلبه . ونزعات روحه . .

. . .

« أما النفس فهى غارقة فى الحمد لربها والثناء عليه لهذا الظفر . ويستولى عليها الحب والحنين لهذا الوطن .

وأما القلب فهو هاتف من أعماقه . « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » . ولمن صبر وغفر ، إن ذلك لمن عزم الأمور ،

وأما الروح فتسبح فى ملكوتها ، فلا ترى إلا الصفح الجميل ، والغفران الجزيل ، والعفو الشامل ، والبر الكامل ،

. . .

يا أعاجيب الحياة ، رجل يكون أمامك ، وهو بعيد عنك ، وتمتد الأيدى لأيذائه ، فيترفع عن التفكير فيها ، كأنه يوحى لمن أذاه ، أفعل ما بدا لك ، فهذا من توابعى كما هو من توابعك ، وكل ميسر لما خلق له ، ولن تجد منى الا الصبر وعدم المبالاة ،

: ما أعظمه ، إنه لنبىّ ، انه لنبىّ ،

. . .

« ويستجيب النبى لوحى نفسه وقلبه وضميره ، فيجمع قريشا ، فيخطبهم ، فيريهم أن الدين الأسلامى هو دين الرحمة والأيثار ، ودين الحلم والسماحة ، والعفو عند المقدرة ، ودين السلم ان أجدى السلم ، والحرب ان كان لاينفع الا الحرب ،،

. . .

« ويكبر المسلمون هذا العفو ، ويضعف المشركون أمام روعته ، فتردد الألسنة ، لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمومنين رءوف رحيم ،،

. . .

« ألا إن فى هذه الذكرى حياة لقلوبنا ، وتجديدا لأرواحنا ، وبعثا أصغر لعالمنا ، وما يعقلها إلى العالمون !

. . .

« ألا وإن فيها المثل التطبيقية لكل من جاهد وصابر ، ولم يبال بثرثرة الظالمين ، ولا قوة المعاندين ، لو فهم ما فيها المسلمون ،

. . .

« لعل كهرباءها تشع ، فيصادف شعاعها قلوبا متفتحة ، فيرتسم فيها ، فيخرج خبثها ودرنها ، فتستطيع بعد ذلك أن تؤدى ما عليها نحو الأنسانية ،، ألا آن الأوان ، ألا آن الأوان ؟ !

فلسفة الحيـــاه

« إذا كانت العبـارة هنا رقيقه رقيقة : فاعـــلم أنها أثر نسمة من نسمات الحياة : وإذا كانت شديدة شديدة : فاعلم أنهـا نتيجة عاصفة من عواصف الحيـاة : وإذا كانت غامضة مبهمة : لاتكاد تستبين . ولا تكاد تفهم . فاعلم أنها تفسير لفلسفة الحياة . .

* * *

« وما الحياة فى حقيقتها إلا شىء كأنه شىء . فتطمع فى كسبه . فيظهر لك من الضعف مايزيد فى طمعك . وما يضاعف من مجهودك . حتى إذا تعبت ونصبت . قالت لك . إذاً . لاتصلح لأن أقبل عليك . لأن اسمى مشتق من الحيوية التى لاتعرف الملل . ومن الجهاد الذى لايسرى اليه الـكلال : ومن التجدد الذى لايفتر عن العمل . وهـــذا غير متوفر فيك . .

* * *

« وما فلسفتها إلا قطعة من الغموض . كأنها الغيب . وجزء من التردد كأنه الريب . ومثل فى التعمق . كأنه القلب . .

* * *

« معنى عمق . فلم يعرف له قرار . وشعاع أمتد فلا تدرى نهايته

وصفاء ازداد . فلا تستطيع أن تحكم على أوله أو آخره ..

« إنها أطوار وأطوار . فحيناً تفجؤك بحلوها . وأحيانا تقذفك بشررها . وتارة ترتسم لك صورة حيرى . وتكون عميقة عمقها . متشعبة تشعبها . وتصير أنت بجملتك نقطة فى محيطها . ,

فان كنت محظوظا . كنت فى أعلاها . وان كنت غير ذلك . أصبحت فى سفلاها . فاذا صبرت واستسلمت . فخيرا قدمت . وجميلا عملت . وإذا ثرت وغضبت . قالت لك « ارفق بنفسك . وأصبر على ما أصابك . فهذا هو نظامى الذى لايغيره تأثيرك . وهـذا هو قانونى الذى لاتبدله ثورتك .

« وتلك الإيام نداولها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لايحب الظالمين .

***

« أعجب أولا تعجب . فهى التى تقيمك وتقعدك . طوعا أوكرها منك . وأنت على حافتهـــا ما أنت على الحافة الأخرى . لأن ذاتها متصلة بعضها ببعض . ولا تقبل الانفصال بحال .

أليس رضاها منتهياً بسخطها . وسخطها مقدمة لرضاها ؟؟ .

. . .

« عجائبها لاتنقضى . حتى تنقضى . وغرائبها تتجدد فى كل لحة من

لمحاتها . وآياتها شاذة . لأن صورتى الاعجاب والاحتقار متعلقة بها .

« تبسم أمامك كالزهرة . ويغريك منظرها . كالوردة . وحينما تمد يدك لاقتطافها خطفتك هى . ووضعت بين حناياها . وأسرت اليك . فُزْت إن هدأت وسكنت ، وخسرت إن قلقت وتململت ، وهذه هى معجزتها الوحيدة ، التى أخرست كل لسان ، وقضت على كل حركة ، وأوعدت جميع القلوب .

. . .

« قوانين عربية : وأعظم غرابتها أنها ثابتة : فلا تتحول ولا تنتقل ولا تتأثر . ولا تشعرك أنها غريبة .

. . .

« الإنسان فيها ، كالسمك فى البحر ، كلٌّ رضى بجزئيته ، وقنع بما يفرض عليه ، ورضى بما يوجد له ، وكما أن السمكة تموت إذا خرجت من البحر ، فكذلك الانسان يموت عقب خروجه من الحياة

. . .

« وإذاً ، فالذى ينبغى أن لايجهل المرء حقيقته ولا يغتر بلسان باطله ، ولا يزهو بسداد رأيه ، بل يلزم نفسه الأدب مع نظام الحياة فلا ينزل حار لعناته على قوانينها ، ولا يصب مقذوفات كلماته على أيامها ، لأن هـذا لن يفيده فى شىء ، ولا يضرها فى شىء ، وإنما هو من قبيل الحمق الذى أوله الغرور ، وآخره الهزيمة

« ولذا ، تكره منك أن تتعظم عليها ، وتعاملك هى بكل غطرسة وكبرياء ، فان خضعت لها ، أحسست كأنت مهضوم الحق ، ذليل الجانب ، ضعيف السلطة ، محصور الدائرة ، وإن وقفت أمامها صادمتك بحقائقها التى تتطاير كالشرر ؛ وقابلتك بسهامها التى تنفذ كالقدر ؛ وواجهتك بنكباتها التى تغمرك ؛ كما يغمر الأرض السيل المنهمر ؛ ونادتك ، اخضع أو لا تخضع ؛ فسأذيقك العذاب الأمرّ ، حتى ترجع الى ربك ، ويكون عنده المستقر

. . .

« أنت دوما فى حيرة من شأنها ؛ وهى تقلبك كما تشاء ، وأنت فى اضطراب ؛ وهى فى سكونها ، كأنها السماء وأنت المسكين الذليل ؛ وهى المعول العامل فى الهدم لأفكارك والبناء ، وهل هى إلا تغيير وتبديل ؛ وشروق وغروب : وطلعة ثم ؛ ؛ ثم خفاء

. . .

« عواملها الظاهرية ؛ إغراء يعميك ، ورغبة تستولى عليك ؛ وبريق يضىء لك بعض ما أظلم منها ؛ فان نظرت إلى هذا بعين قلبك ؛ ونور بصيرتك ؛ نفذت إلى حقائقها الباطنية ، ووصلت الى خفاياها المكنونة ؛ وحينئذ ترى مالا يراه غيرك ، ولا تسيطر عليك ، كما تسيطر على غيرك ؛ بل تقف منك ، موقفا سلبياً أكثر منه إيجابيا ، وتقف أنت منها موقفا إيجابياً أكثر منه سلبياً

« ومن هذه الناحية نظر اليها سلفنا الكريم ، فعرفوا أنها البرقع المزيف ، والسراب المليع ، والمعنى المنمق : فساروا فيها على حذر ، وقدموا عقولهم على أبصارهم ، واستعملوا قلوبهم وراء ألسنتهم

« وبذلك كانوا لايخضعون لسلطانها . ولا يبالون بما تجابههم به . ولا يسألون عما حجزته عنهم ، ولا يحزنون لما فاتهم منها ، فأخضعوها لهم ، وملكوها بأزمتها .

* * *

« أنظر إلى ذلك الأعرابى ، يقدم على ابن الخطاب ومعه عصاه ، وإناء للوضوء . وهو حافى القدم ، حاسر الرأس . وكان واليا فى هذا العهد فيندهش عمر ، ويسأله ، أأجدبت البلاد ، أم ماذا ؟ . فيقول الرجل ألم يكفك أنى أقبلت عليك بالدنيا كلها ، وهل هى بحذافيرها إلا تبع لما معى ؟ .

* * *

« جوهر من النور ، يشير الى حقيقة النور ، بكلام من النور ، ليُدل ويبين عظمة النور .

* * *

« إن الحيوانية إذا صفت ، صارت إنسانية ، وإنها إذا سمت ، تجردت عن عوامل التأثيرات : فتنظر من غير مؤثر . فترى من الواجب أن تجهر بالحقيقه ، وإن كانت مرة ، وتصدع بالحق وإن كان صعبا . وتتفوه بالصدق ، وإن كان علقماً

« ومن الحقيقة والحق والصدق ، أن تنظر الى الحياة من غير روائها ، وتبصر ما فيها مجردا عن طلائها ، وتتعمق فى ذلك حتى يمكنك أن ترى بظاهرك ما طوته عنك فى خفائها ،

٥ ٥ ٥

« من يدّعى بأنه مصرف للحياة ، ومؤثر فى أقدارها ، ومالك لزمامها ، من غير أبوابها ، كان مثله ، كرجل ، ضرب ، بمجدافه البحر ليشعره بأنه مسيطر عليه ، فلا يدرى إلا وهو فى أعماق البحر يهوى فيصبح من عليه الى اليسه ، فان أماته ، ذهب ومضى وان أخرجه حياً فهو برضا منه واختيار

« جبروت نقطة (١) مهينة ضعيفة ، قابلة للمحو والتغيير ، متأثرة بالجو الذى يحيط بها ، مضطربة فى غالب أوقاتها ، تستطيع أن تقف أمام محيطها ، وتثبت فى عين كلها ، وتجابهه بأنها هى المالكة له والمسئولية عليه ، ثم لا تكتفى بهذا ، بل تذيعه وتنشره ، وتلقيه لكل رائح وغاد ، يا لغرور الانسان ، يا لغرور الانسان

« قبل أن تعطيك الحياة نعمتها ، وتمنحك منحتها ، تبين لك ، أن هذا الاعطاء عن رغبة لا عن رهبة ، وتقول لك ، الدليل على ذلك منحك بعض ماتريد ، ومنعك أكثر ماتريد

---

(١) كناية عن الانسان .

« ولو أنصف المرء لرضى بخيرها ، وثبت أمام صدماتها ، ولا يعيرها إلا نظرة بعيدة المدى ، عميقة الغور ، شديدة التأثير ، لينظر ببعدها ما وراء مظاهرها ، وليرى بعمقها ماخفى تحت ستارها ، ولينفذ بشدتها الى كثيف حجبها ، وليقول لها ، إذا كنت أنت قوية بسلطان المقادير ، فأنا أثر من آثارها

. . .

« ما أبعد الفرق بين اسم الحياة ومعناها

إن تركيبها الظاهرى ، ينبىء بأنه يعرف لأول وهلة ، ويوصل اليه بأدنى فكرة وتستطيع ان تتفهمه بمجرد اللمحة

فاذا بحثت طواياه ، ووقفت على خفاياه ، علمت أنه الساحل الذى لاعمق له ، والباطن الذى لاقرار له ، والغيب الذى لايعلم مافيه إلا صاحب الغيب ، والصحراء التى يضل السارى فيها ، أينما حل وسار ولا يسعك عند ذلك إلا أن تسلم الأشياء لباريها ، وتخضع فى النهاية لمنشيها ، وتقر بأنك الانسان الذى كما يوعد بالتخريب والدمار ، يوعد بالعجز والتقصير ، ويقال له ، لاتكثر من كلمة أنا ، ولاتسرف فى ادعائك المجوف ، ولا تشطط فى تفكيرك ، ولا تمش فى الأرض مرحا ، انك لن تخرق الأرض ، ولن تبلغ الجبال طولا

. . .

كبرياء جامحة . ووهم قتال . يصيبان المرء فى هذه الحياة : فأول

مايعمل ، يلصق بنفسه الضياع والهلاك ، ويقربها من مادة النار المشتعلة حاسبا انها النور المضئ . فهو يأنف أن ينظر ، ويحتقر أن يستفهم ، فيجرد شخصه مع الجامدين ، وتزلف رجله مع من سواه . وعلى نفسه جنى . وإلى شخصه ترجع عوامل الشر .

٥٥٥

« وجهل مطبق يدهمه ، فيملى عليه ، أنه يجب أن ينفذ كل مايبتغيه ويمضى جميع ما أراده ولو هلك الناس جميعا ، أو لم يملكوا .

حسبه ما بين ضلوعه (١) ، وكفاه مافى جوانحه ، فان منع شيئاً مما طلبه ، أكل الغيظ قلبه ، ومزق لبه ، ومضى على بقية آماله ، وظن أنه البناء ينهار . فلا يحد من يقيمه . وأنه الطير ذبح ، فلا يجديه رقصه ، وأنه الكلمة ذهب جزوها ، فلا تليق إلا اذا وجع .

٥٥٥

« حروف ضخمة ، أريد تصليحها فرقعت ، ثم تمازجت فى بعضها ثم رئى عدمها ، فحذفت ، ورمزلها بدليل : هذا شأن الانسان فى الحياة

« ما أسعد المرء تكشف له الحياة عن لثامها ، وتشرق عليه بنعمائها ، وتظلله بوارف طيباتها وتحوطه بجمال عنايتها ، وتذلل له سبلها وطرقها ، وتنفحه بشذا عبيرها ، فيتقلب على الأرض طروبا مرحا ، مسرورا فرحا ، يتمنى فتقبل عليه أمنياته ، فى أثوابها الحسان

---

(١) تفسير الانانية .

وهيئتها اللطيفة الرشيقة ، ويتصور ، فيجد ما تصوره أمامه ماثلا ، تحيط به بسمة الرغبة ، وتزينه علامات الاقبال ، وتجمله أساليب الاغراء ، ويطلب ، فما يعرف بأى يد يأخذ مطلبه . ولا بأى أصبع يلمسه . . ؟؟

٥٥٥

« ولكنه الانسان الجحود النفور ، فلا يلبث أن يزهد فى النعمى ويمل التنعيم ، ويأس من التكريم .

٥٥٥

« وما أشفاه ، تعرض له صورا وخيالات : فيتبعها رغباته ، ثم حار زفراته ، فلا تلبث أن ترجع اليه دموعه عارية ، إلا من ثيابها ظمأى ، إلا من مائها ، فترد إلى عينه ، ثم يصعد بخارها إلى فكره ، فلا يزداد إلا ألماً وحسرة ، وينحدر الى قلبه ، فلا يزيد الاشقاء وخيبة

٥٥٥

« وما أكثر هؤلاء الأشقياء ، طحنتهم الحياة تحت أضراسها ، وأبلتهم بقسوة أقدارها ، والتهمتهم بوهيج نيرانها . حتى تركتهم أجساما نحيلة ، كادت الضلوع أن تشكى فيها ، وكادت هى أن لا تتحمل شكواها ويا ليتها إذ ذاك سكنت وكفت أذاها وانما عمدت الى هذه الاشباح فخلعت قلوبها منها ، لتعيش من غير شعور ولا حساسية ولتكون مثالا لسفن البحار التى لا دفاف لها .

« لقد حولتهم الى أشخاص ، ظفروا من الانسان برسمه ، وإن كانوا عنه بعيدين . فاذا رأيت ثم رأيت عضلات ، بلاها الهم ،وجياها غضنتها النكبات ، وظهورا قوستها المصائب ، وعقولا طاشت بها عواصف الأحزان ، وعواطف حجّرتها القسوة ، ونفوسا ملأها اليأس ، واستولى عليها بعوامله الفتاكة ، وسمومه المهلكة ، وحركات منبعها الدليل على الحياة ، والغرض منها مسايرة المقادير .

° ° °

« هؤلاء هم أبناء الحياة المنكوبون .

كأن الله سبحانه أراد أن يرينا دليلا على البعث من طريق آخر فخلق لنا هؤلاء ، لكى يبين ويوضح أن فى هذه الدنيا رجالا يولدون أحياء ويشبون أحياء ثم يموتون وهم أحياء ، وقد يحيون وهم أحياء .

« * »

« لا تدرى ، أتقف منهم موقف الرثاء والاشفاق ، أم تقف من الحياة التى فيهم ، موقف الرثاء والاشفاق .

« ولكنهم ، هم المحتاجون إلى الرثاء ، والمشرفون على الهلاك ، والمحرومون من السعادة :

° ° °

« فلئن كانوا قبورا لما فيهم من حياة ، فأنهم سيموتون ويذهبون وهى تبعث فى أجسام غيرهم من جديد ..

° ° °

« إنهم خطوط الشقاء ، نفثها فى الكون ، وأحياها هؤلاء ، ليكونوا بجملتهم دليلا على أن الشقاء له ثلاث أرباع الحياة:

وكأن الحياة قالت لهم ، سأميت فيكم بقدر ما أحييتم من خطوط الشقاء ،،،

٥ ٥ ٥

« ضربات القدر تعمل عملها فى كل آوناتها ، وتنفذ ما تعترمه من خير الحياة وشرها ، وتقدم على كل شىء ، من غير أن تخاف من شىء لأنها كل شىء . ولم تتغير ، ولن تتغير ، لأنه تنزيل من حكيم حميد ، وأنزل الله فى شأنه ، ما يبدل القول لدى ، وما أنا بظلام للعبيد ،

ولعل مرجع ذلك كله ، أن فى خيره الخير ، وفى شره الخير ، آمن الناس بذلك أو لم يؤمنوا ، جزعوا أو اطمأنوا ، فهو حين ينفذ متثبت من ذلك ، مستقر له ، لأنه طبعه وديدنه ، ولذا كان غالب أسراره خفية دقيقة . لأنها من غير شك ستظهر ، ولأنه لا يهمه غوغاء الناس ، ولا ثرثرتهم ، لأن القسم الذى ينازعه من الأرض ، وهو من السماء ، فله قوة الأعلى ، واطمئنان المستحيل ..

٥ ٥ ٥

« سر محتجب ، أشبه شىء بالطائر ، ينتقل بك من مكان الى آخر وتعلو أنت لتنخفض ، وبالعكس ، ولكن الطائر حين يحمل . يكون مايحمله بين رجليه ، أما هو فيطوف بك على طرف من أطراف

أجنحته ، فأن قنعت بذلك سلمت وبجوث ، وإن هززت أو سخرت وضعك بين خفاياه ، فلا تحس إلا وأنت كالطعام المهضوم مضغه ، ينزل إلى المعده وهى جوعى ..

• • •

« لو كنت الرجل الشهم البطل ، الذى ذاع صيته ، وهز الكون صوته ، ثم أقبل عليك طفل مدلل ، لا يحسن النطق ، ولا يقوى على المشى ، وأراد مع ذلك أن يهزأبك ، ويقدم لك ما يسيئك ، ألا تضحك وتعجب فى وقت واحد ، وتهتف ، العقل كل الأنسان ويرى الطفل سرورك الظاهرى ، فيزداد فى إيذائه ، حتى اذا أردت أن تسكته ، لطمته بطرف يدك من غير معاناة جهد ، ولا مبالاة بشىء ، هكذا مثلك أنت والقدر ، والفرق الوحيد ، أن لطمتك تبكى ، ولطمته تجتذك من أصلك ،،

• • •

آه ، لو عمل البشر ، على أنهم بشر ،،

سيكونون النور الذى لايشعر بنفسه ، فيزداد فى الحسن ، وينشر ضوءه ، ويعم نفعه ، ويكون فخره أنه من البشر .

• • •

« ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام : والبحر يمده من بعده سبعة أبحر . ما نفدف كلمات الله . لأنها مادة الحياة التى لا تفنى .

وأصلها الذى لا يزول . ومنبعها الذى لا ينفذ ، وإذاً فسوى هـذا سيمحى ويزول . ويصير كأن لم يكن شيئاً مذكوراً .

* * *

« ومن هنا كانت الحياة المتصلة بالإنسان فى تغيير دائم ، وتبديل مستمر ، فلا تبقى على شقاء ، ولا تدوم له سعادة ، لأن التغيير دليل الفناء ، ومن قديم قيل ، لا يجتمع فى شىء واحد الزوال والبقاء

. . .

« ما أروع الرجل يجعل هذه الحقيقة نصب عينيه . ومرآة قلبه ، وقدام عقله ، ثم يعمل على مفهومها ، ويسير على مدلولها ، فيصمد للحادثة أيا كانت ، ويواجه النائبة مهما ثقلت ، ويتلقاها بجنانه الهادىء وعزيمة تتكسر عليها الصخور ، وتلاطم عليها الأمواج ، وهى راسخة رسوخ الطود الأشم ، لا يتزحزح ، وإن فدح الخطب ، وأدلتهم الأمر . وملكت الشدائد ، ولا يتململ ، وإن صرخت الأيام صرختها وأرسل الدهر مفزعاته .

. . .

« إنه وقت ذاك يكون ابن الصدق ، وتلميذ الثبات البار ، وصورة الطمأنينة الفذة ومثال البطولة النادرة ، وإنه ليكون إلى مادة المقادير ، أقرب منه الى مادة الحياة

« حرام على الناس أن يطلبوا الاصلاح من مواضع الفساد ،

وأن يستلهموا البقاء من دائرة الزوال ، وأن يريدوا الخلد ، فى دار الغرور .

. . .

« آمالٌ دنيا يريدون تحقيقها ، وأمانى واهية ، يذهبون وراءها ، وخيوط من العنكبوت ، يتعلقون بها ، وأحلام كليلها ، يشغفون بتحقيقها ، ويصرفون فى ذلك الغالى والنفيس ، وهم يعلمون أن كل هذا زخرف باطل ، اذا رأته العين ، انحجب عنه القلب

. . .

« ماذا نقول ، وماذا يكتب القلم ؟

المجموع غاو ، والجميع مضطرب ، وهل الإنسان الا ضميره ، وكيف يقر الضمير والنار مشتعلة ، والدمار يرسل جيوشه ، والانهيار ينشر جراثيمه ، والأرض تحفر حفرها ، والحياة تستنقص أجلها ، والجوارح تستغيث ولا مغيث ، وتستنجد ولا منجد ، والظلام يقبل بكابوسه ، والغشاوات تعمى البصر ، والجهل يرعد ويدوى ، والسماء تنزل اللعنات والسخط ، والناس قارون لهذا وساكنون ؟

« اذا دخل الانسان النار فعذب ، كان من المألوف عليه أن يعذب ولكنه اذا عذب فى النعيم ، كان هذا من الغرابة بحيث لا تكاد تصدق وإن عذاب الانسان فى حياته ، وعذاب الضمير فى جسمه ، من هذا القبيل ، فهو فى الواقع يصطلى بنارين

« لقد غرنا زخرف الحياة ومتاعها ، وزين لنا الانغماس فى الهوى وحب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، فطمست بصائرنا وملئت نفوسنا بحب التوافه والترهات ، والخضوع للغريزة ، حتى تركتنا حقيقة الحياة ، وظللتنا ظواهرها ، حتى كادت قلوبنا أن تنتقل من أمكنتها ، وسخرت نفوسنا من ذات نفسها . !

. . .

« لئن كنا حاذقين وماهرين ، فإنما لأننا نقضنا القاعدة التى تقول الولد سرُّ أبيه ، فأباؤنا كانوا من الدنيا . كهى أمام الأقدار ، ونحن فنينا فيها حتى صرنا معنى من معانيها ، تحركنا بأشارتها ، وتحفينا بكلمتها

* * *

« كأنها تقول لنا ، اما أن ترضوا بما أنتم فيه ، واما أن أعاقبكم عقابين عقاب عقوقكم لآبائكم ، وعقوقكم لطاعتى ؛ وجزاء الأولى عدم انتفاعكم بحياتكم ، وجزاء الثانية لعب الغير بكم

« وجزاء سيئة سيئة مثلها ، وكما تدين تدان . .

* * *

« أيتها الحياة ، رفقا بنا ، وعطفا علينا ، فلقد أظلم اليأس قلوبنا ومزق أحشاءنا ، وقطع أنفاسنا ..

« ونحن اذ نكون سعداء . يحيا فينا اسمك ، وتتمثل فينا معانيك .

« * »

« ما أحوجنا إلى أن نفهم الحياة بمعناها الحق . ونعاملها المعاملة الحقة . فنكسبها الكسب الحق . وننتفع بها الانتفاع الحق . فنعيش ونمرح فى ميدان الحق . حتى يرضى عنا الحق . ونكون بذلك من السعداء الآمنين ..

الراية المنكسة

« سبحانك ، يامن اختصصت بهذه الكلمة ياذا الجلال والاكرام كل الكون آيتك ، وجميع الورى دليل عليك ، وأبت قدرتك إلا أن ترينا آثارها فى أشياء أخرى .

* * *

« فجعلت لنا من الشجر الأخضر ناراً ، فاذا نحن نوقدمنه ونشعل وأوجدت لنا فى كلمة الحق . الحلاوة الحلوة ، والمرارة المرة ، وأخرجت لنا من الشر المحض الخير الخالص ، ومن الخير الخالص الشر المحض ، وأنبتتَّ فى الأرض أناساً لايعرفون إلا الفضيلة ومعناها وأناساً يرون كأنها لغيرهم نزلت ، فهم تاركونها وهاجرون لها ، وجعلت الفريقين ، كِفتَين فى كفتى ميزان ، نسبة الخير للشر فيها كنسبة الواحد للمائة ، والواحد كثير .

* * *

« ومسحت بيدها على الأسلام ، فكان الحى النابض ، ومرت بيدها عليه ، فأصبح المستريح الهاجع ، ثم ألقت اليه :

« أيها الأسلام . لا تبتئس بما أصابك : ولا تحزن لما ألم بك : فأنت فى ذاتك طاهر مطهر . تحمل المجد : ولا تلد إلا الفضائل :

« كل العظمة معانيك : ونبع السلم منك : وجمال النور : قبس من إلهامك : وجلاله من جلالك .

. . .

« ويكفيك أنك الدين المختار عند الله : وأنه سبحانه : لا يرضى من عباده إلا الذين حققوا مغزى اسمك : وطبقوه على ظواهرهم وخفاياهم . .

* * *

« فلا يهمّنّ جوهرك شيء : فمثله مثل الوردة : كلما لهثت العيون عنها : كلما تلألأت واذدهرت : فاذا اقتطفت : فهي صانعة باستحيائها ما يجعل قاطفها يتغافل عما في باطنها : فاذا بلغ شغفه أن يفضّها : ارتعشت ولسان حالها يصرخ : حفظك الله إن حفظتني : وضيعك إن ضيعتني :

* * *

« فهما يسرف الزمن في تعاميه عنك . ويبعد السفر للبعد عن طريقك . ويوجد الحواجز بينك وبينه : فلا تعرّه اهتماما . ولا تتبعه فكراً . فانك كما عرفت .

* * *

« ولكن أهلك وأدعياءك : لا بارك الله فيهم : هم الذين آذوك برجسهم : وعكروا صفاءك بترابهم : وألحقوا بمعناك ظلمتهم .

« وأوجدوا فى يصرك غشاوتهم .

* * *

« ومع هذا كله : فلا تقطع شعاع رجائك : ولا تُكرهنّ نفسك على أن تهجر الأمل : فلقد قيل . الحرب سجال . والأيام دول .

* * *

« تباركت وتعاليت . يامن عز طائعك . وهلك عاصيك .

« لم ترض الشر ولكنك أردته . ولم تمنع السوء من وجودك : ولكنك حرمته . وخلقت أبغض شىء اليك : وجعلته عالماً مستقلا . ووجوداً وحده . وكان عقاب بغضك له أن كان فانياً حقيراً . زائلا مهينا . يذهب أكثر خصائصه . ولا يخلد إلا ما كان خيرا أو اتصل بالخير . . .

٥٥٥

« وأبقيت الشيطان بعد أن كابرك : وأبدل وعيدك بوعيده . لتنبت من كل ذلك حكمتك الجليلة : وتبرز قدرتك السامية . وتطلع آثار جلالك : كلما وضح الصبح وأظلم المساء .

• • •

« فما خلقت من بغضته لذاته . وما أمهلت إبليس لأنه يستحقه فحسب . وإنما ليعرف من يحافظ على انسانيته : ممن ينحط الى حيوانيته

ويتضح الفرق بين الخبيث والطيب . ويلمع سنا الحق : وان قلّ أهله ويخفت بريق الباطل المزيف : وإن كثر متبعوه : وفى بعض هـــذا مايكلّ اللسان عن تبيانه . ويعجز الفانى عن تصويره .

* * *

« ثم أوجدت الدائرة الكلية لجميع هذا : وهو الانسان .

« * »

« وأمضى آدم قدرك : فخالفك : فهبط الى الأرض : لينسل الذرارى والبنين : ثم أرسلت رسلك من أبنائه إلى أبنائه : لكى تبين أن ابن آدم قد يعلو ويعلو . حتى تقتبس الطهارة منه : ويكون نوراً من لحم ودم : وبهـذا يتأهل لأن يتصل بالله : وتلقى عليه أوامره : ويطلب منه تنفيذها .

وقد يسفل ويسفل حتى تكون بينك وبينه واسطة من شاكلته : وحتى يكون صورة للقبح : وعنوانا للرذيلة : وبذلك يكون مكان غضبك : ومثالا لقهرك . وقد كان أولى له ثم أولى أن يكون رمز رضاك المفسر بكسبه الخير . ونفعه الجليل .

* * *

« ثم شئت وشاءت أقدارك أن يكون سيدنا محمد برزة المخلوقين وخاتم المرسلين . وأن يكون دينه الاسلام : وأن نكون نحن من أمته

« فما أرق جمالك . وما أسمى حكمتك . وما أجل آيات قدرتك .

. . .

« لانستطيع أن نمنع اتصال حلقة الأديان : بعضها ببعض : وقديمها بحديثها : فهذا شيء حققته الوقائع : وأظهرته الدلائل . وإنما يمكننا أن نقول .

إن الاسلام عظم شأنه : ونبل معناه : وحلّ قدره : وفاقت دساتيره : حتى أنه يسطع أحد أن يجهر باسمه المباشر : إلا من كانت العظمة رداءه المباشر : رداءه الذى كان كاسيا لصمت صاحبه : ونظرته ومكنون صوته : ومدلول حركاته . ومفهوم معانيه . فكان الكل لها وكان البرهان الحى عليها . ألا وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

. . .

« وهنا الحيرة التى ترفعك وتخفضك : وتطفو بك حتى تظن النجاة : وترسب : حتى تؤكد الغرق . !

« فهل تدرى : ؟ أكان الاسلام دليلا على عظمة محمد : أم كان محمد دليلا على عظمة الاسلام ؟

. . .

« ولئن قلت : إن محمداً أول مخلوق : وسيد كل كائن : فهلا علمت بأنه لم ينل هذا كله ولم يرق إلى سبع سمواته إلا بعد أن هيأه الله

وصاغه : لأن يحقق معنى الاسلام : حتى يكون كما أنزل من فوق سبع سماواته ؟؟

. . .

« وهل كان رهنه للدرع : وطيه الأيام بالجوع : وتحمله حرقة الظمأ : وحزنه العميق : وجهاده المضنى : إلا دليلا على ذلك : وتحقيقا لمفهومه : وكشفا لغامضه .

. . .

« وهل تعلم أن تأخير النبي إلى هذا الحد : ليكون من قبل روعة الياء فى ذاتها : أم لأنها تذكر بالمبدأ الأول وهو الله سبحانه . . ؟

. . .

« آيات تشابهت . فلا يعلم تأويلها إلا الله .

٥ ٥ ٥

« إذا تبدد الجهل وامحت آثاره : وانتهت آخر انفاسه . أقبل المصدر الحقيقى لنور العلم : لأن اشعته هى التى اذهبت الجهل وآثاره كالليل يزول ظلامه شيئاً فشيئا : يرسل الشمس : فاذا انتهى من آخره ظهرت هى كلها : وكذلك كان شأن الجاهلية وروعة الاسلام

. . .

« وطلع الاسلام من دنياه : فبدد برعشاته غشاوة الكون التى

بجمدت حتى تكونت سحابا تمطر الكبرياء على عظماء قريش : فيأنفون من غيرهم . ويمطر الظلم على أفرادهم . فيحاربون للحرب . ويكرهون السلم للسلم . وينزل الركود على العقول . فتستحسن عبادة الأصنام : ويرسل قطرات سوداء من الغرور : فلا تصل بعضهم . حتى يجهروا أنهم لغناهم وحسبهم : أولى من محمد اليتيم ورسالته . !

* * *

« وما دام الله قد اختاره هو من بينهم : وفضله عليهم . فسيعلنونه وربّه الحرب التى لاتبقى ولا تذر . وسيجابهونه بهذه السيوف التى لايكون همها إلا خطف اعناق البشر . تحديا منهم وبغضا لرب القضاء والقدر .

* * *

« عقول كأنها الصخور الجلامد : وأوهام تكاثفت : فزادتها صلابة على صلابتها : وشعور تحجر فكان ثالوثا مكينا : وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار : وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله :

* * *

« ولكن هذا الثالوث لا يخرج إلا الأذى : ولا يتفجر منه إلا شبح القسوة : لأنه لا يعرف ما هى الخشية : حتى يهبط منها :

* * *

« وتكون هذا كله : على هيئة امتعاض فى قلب النبوة الكبير : صوره القرآن بقوله « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » : وأزاله بقوله : « إنك لا تهدى من أحببت : ولكن الله يهدى من يشاء : وهو أعلم بالمهتدين » :

* * *

« قد تشرب الكأس لأزالة الغصة : وقد يكون من السم الدواء وقد يكون الحرب فيه الشفاء : فسلت السيوف من أغمادها : وكل اسيعد لتحقيق مطالبه :

* * *

« أما سيف المؤمنين فكان عقيدتهم فى ربهم : وإيمانهم بدينهم : « واستمدادهم من نبيهم ثم قطعة من الحديد فحسب . ولكن سيف المشركين : كان ضخامة ادعائهم : وصوله عظمتهم : وسلطة غرورهم : ثم الجم الغفير : من الأسلحة الوافرة : والذهب النضير :

* * *

« ولئن كانت كل نتيجة تابعة لمقدمتها : فأن العقل هنا إما أن لا يسلم بهذه القاعدة : وإما أن يحار : فلا يعرف النتيجة من المقدمة :

* * *

« ومن الذى لا يستولى عليه العجب : عندما يعلم أن جيوش

الكفار بعديدها انهارت قواها : ساعة تقابلها مع جيش المسلمين بعقائدهم :

• • •

« ولكن من ذا الذى يعارض أن النبي محمدا لم يساوه أحد ممن أسلم أو كفر . ؟

• • •

« ذلكم النبي الذى علمه الله : كيف يطرق الحديد ويلينه : وكيف يصيد الوحش ويروضه : وكيف يستولى على النفوس : حتى تنفق فى حبه المال والبنين : وتبذل فى سبيله المهج والأرواح :

والذى استطاع أن يخاطب رجال الكرة الأرضية جمعاء : إذا اتبعتمونى : ضمنت لكم السلامة عند الله : وإذا خالفتمونى : فلن أهدأ عن حربكم حتى ألقى الله ::

• • •

«ثم يرفع أكفه إلى السماء ويدعو . «اللهم اهد قومى فأنهم لا يعلمون»

• • •

« فلا تعجب إن أقام فى خمس قرن : دوله لا تهاب إلا الله وحده ولا تخاف إلا منه :

أما الحروب فهم فرسانها : وأما الأرض فهم آسادها : وأما

الناس : فهم وحدهم الذين عرفوا كيف يخضعونهم . وينفذون الى أعماقهم . اما باللين : وإما بالسيف :

• • •

« ويعلم الله ويشهد أن ثانيهم ماكان أحد من أولهم الذى كان يتمثل فى خلقهم : وسحر روحانيتهم : وقوة هدوءهم :

• • •

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً : وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ..

• • •

« إن المؤمن حين تقوى فيه مراقبة ربه . ويستأسد ضميره فى قرارته : يصبح الرجل الذى لا يصبح إلا لإرادة خالقه : ولا يرتعد إلا من خشيته : ولولا أنه لم يقو إلا بها : لما خاف منها :

• • •

« وهل نهى المسلمون عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي الا لأنه كان مكسيا بخشية الله . وملوءا بها . وصورة لحنانها وقوتها ؟؟

• • •

« فلتنم يا رسول الله فى قبرك . ولتكن آمنا مطمئنا . فأن صحابتك

سيكونون أمناء من بعدك. وسينفذون ماعهدت به اليهم : وسيعملون على تخليد آثار إنسانيتك العليا . وسيطبعون شريعتك على كل شبر من الأرض . حتى يتبع أميرهم السحابة بنظرته ويقول لها ..

« شرقى أو غربى . فأن خراجك سيأتينى ..

. . . .

« خلاصة من المعانى : تتجمع وتتجسد . فتؤدى وظيفتها : وتبعث للكون خدماتها . ثم تبين له أنها لاتريد منه شكرا ولا جزاء فتعرج الى ربها راضية مرضية . وتصعد الى عالمها لتطلب جزاءها ممن وسع كل شيء علما . ولم يضع عنده ثوب من أحسن عملا . .

. . .

جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار . خالدين فيها أبدا : رضى الله عنهم ورضوا عنه : ذلك لمن حشى ربه . .

* * *

« إنهم لجمع الفخار لنا فى حياتهم ومماتهم . . .

أما الحياة فلما قدموه فيها : ولما بنوه وشيدوا أركانه :

وأما الممات : فهو الفخر لنا عند من سبقنا من الأمم . فإذا كانوا هم عاشوا طويلا : فلم يخلدوا مآثر أو أعمالا : تساوى الذى قام به

هؤلاء الأبطال من الآثار والمشروعات .

* * *

« عجائب الأقدار تضفى جلالها وروحها على العظيم الحق :
فتكسبه القوة والروعة حياً : وتحيطه بجمال الذكرى : وعظمة الخلود ميتاً :

* * *

« وهل يستوى الذليل المهين : المستضعف . المغلوب على أمره بالذى يأمر بالعدل . وهو على صراط مستقيم . .

* * *

« مثل الفريقين كالأعمى والأصم . والبصير والسميع . هل يستويان مثلا . أفلا تذكرون ؟ .

. . .

« وتطوى صفحات التاريخ هذه الأسطر التى كانت كلماتها عميقة : لأن كلا منها . إما رمز . أو كناية . وإما ضمير . أو نقطة أرادت أن تمثل الخلاصة فكانتها . .

. . .

« وهل أمثال عمر إلا كناية عن الحق وجلاله . وهل أشباه خالد

إلا رمز للخلود وعظمته : وهل أصناف أبي بكر إلا ضمير فيه عمق الحنين : وقوة الضمير . وهل شاكلة ابن أبي طالب إلا عنوان على طهارة الاسلام . وقوة الفراسة . وبعد النظر ؟ .

. . . .

« وكأن جمع هؤلاء ما ظهروا كل الظهور : إلا ليكتفى فيما بعد بكناياتهم : وإلا لأنهم ألهموا أن خلفهم سيختزل الفضائل . ويختصر الكماليات الحقة . حتى يشيروا إليها بكناياتها . فيكونون هم من جملة هذه الكنايات ..

. . .

« لا أدرى : أمن الروعة أن يتجمع العظماء مرة واحدة . ثم يذهبوا مرة واحدة ؟ أم هى أن يكون بين العظيم والعظيم رجل حقير فتوزع خساسته على هذين العنصرين . لعل الله ينقله . بهما من محيطه إلى محيطما ؟ فتتحدد المعانى كلما بليت . ؟

. . .

« ومن أسرار القدر ما يظهر . ومنها ما يختفى . وطلب منا أن نؤمن بالحالين . وتلك هى آثار (الدلال الإسلامى)

. . . .

« ولكن الإنسانية الحقة . يحافظ أولها على آخرها .

. . .

« يسأل عمر : لماذا قطعت شجرة الرضوان : فيقول . مخافة أن يعبدها من بعدنا :

ويجدب المسلمون : فيأتدم الزيت : فتألم بطنه : فيقسم : لن تؤدمى السمن حتى يخصب المسلمون . .

« ولو نوقش فى ذلك لقال : لأننا القدوة لمن بعدنا . .

. . .

كأنما ينظو بعين الغيب الى أن هناك من المسلمين . من يشوه الحقائق بزروه : ويقلبها ببهتانه . ويهضم الإسلام بقوانينه ودساتيره وواجباته .

. . .

« ولعمرى : انها للفراسة التى يحدثنا الرسول عنها فيقول : « اتقوا فراسة المؤمن » .

. . .

« يا حسرة على الأسلام اليوم : لقد فقد مكانته بين ذويه وأتباعه إن ظهر : قالوا : مدنية بليت . ومعالم درست . وقانون وحشى (١) .

---

(١) مثلما قاله بعض الناس فى إيجابه قطع اليد فى السرقة .

لا يليق بنا . ولا نستطيع إستساغته ..

وإن اختفى . نسبوا اليه الضعف والمهانة. وألحقوا به ذلهم وعارهم وردوا اليه مصدر خيبتهم . وحسرانهم .

. . .

يا ويلنا من الحقيقة . ويا ويل الحقيقه منا .

لقد ضعفت النفوس أمام ضمائرها . فأرادت أن تحقق معنى أشخاصها . فاعتنقت الحرية الأباحية لتظهر أنها من القوة بحيث لا يسيطر عليها أحد . وما درت أنها بهذا مغلله بسلاسل شهواتها . مقيدة بسلطانها .

. . .

وإننا لو نزحنا البحيرة من عمقها . فبأى شيء تروع ؟ ولو أخذت من العصار صانتها . فبأى شيء تؤثر . ولو ضعفت النفوس أمام ضمائرها فبأى شيء تنتظر أن تحيا كغيرها . وتعيش كسواها ؟ ؟

. . .

« يا أيتها الراية المنكسة .

لك الله أولا ووسطا وآخرا .

فسليه بطهارتك وحيويتك واخلاصك . أن يفرح كربتك . ويقيض لك من يتنشلك من ظلمات الحياة . وينصبك معتدلة عظيمة

* * *

، ويا أيها العقلاء من المسلمين .

أنتم بذواتكم نقاط فى هذه الحياة .

وبأسلامكم كل هذه الحياة ... نخنوعكم لما أنتم فيه ظلم لحقيقتكم .

وظلم للاسلام . وظلم لنفوسكم.

القـــدر الغريب

« هو إله الطبيعة وسحرها . وكهرباؤها وسر بهجتها . .

. . .

« به تستطيع الطبيعة أن تتدلل وتستبي وتتصبى . . فتظهر فى ثوبها المزركش الجميل . وتترقرق فى بشرتها الناعمة الرخية . وتسحر بلمعان بريقها الوضاء وتستهوى بمفاتنها الزاهية الرفافة . .

. . .

« وبقوته يستوى لها أن تنادى فيهرع لندائها . وتشير فيتسابق لأشارتها . فتنتقى من تشاء . فتأسره . فتملكه . ثم تقول له .

« ها هنا المقر . فلا تخرج من غير إذنى .

. . .

« وعرشه لا حدود له . لأنه من نور . وقوائمه جهات الكون الأربع . لأنها شعاب القلب .

ووطاءته شيء بين الحقيقة والخيال . أو بين الألم والأمل . لأنها امانيه ووعوده . .

٥٥٥

« وإسمه الحب . قاهر القوى . وسلطان الأقدار . وضحك العيون وبكاؤها . وكأن الحاء فيه رمز لكلمة سلم . والباء رمز لكلمة (إعمل عاشئت) أنظر أنهما حرفان تجمعا : فزلزلت منهما الأرض زلزالها . واضطربت الأفئدة اضطرابها . لشعر الدنيا أن قيم الأشياء ليست فى ظواهرها .

* * *

« وفى تسمية الحب بهما . شىء من الجور الشديد : وشىء من الانصاف الجميل . ففى وضعنا له هذه الكلمة القصيرة . بخسناه قدره ونقصناه حقه . وما أجدره بما فيه : من عمق المعانى . وبعد الغور . أن لو وضعت اللغة له كلمة من عشرين أو ثلاثين حرفا ولأننا بهذا الوضع نفسه أثبتنا له عجزنا أمامه . ووقوفنا حيارى إزاء جبروته وملكوته . واستسلامنا لأساره وقيادته . ولسان حالنا يقول له . سموت عنا بذاتك : وترفعت عنا بكنهك . حتى أننا لم نستطع أن نعرف منك إلا بمقدار هذين الحرفين .

* * *

« الحب وما أدراك ما الحب . ؟ إنه نقطة المشاكل المعقدة . ومنبع الحيرة ومصبها . وأسلوب الضمير فى خفائه . وكيف لا يكون كذلك والمرأة لغز الحياة الأول ومشكلتها الكبرى . وهى أحد مطلبيه .

« وإنه المبهم الذى لايدرك ، والباطن الذى لايوصل اليه والحقيقة التى لاتعرف بذاتها : ولكن : بشواهدها : ونتائجها . وإنه المعبد الرهيب : لايلجه من يلجه : إلا إذا خلع ماعليه من ثياب . ولبس ماجعله هو من ثياب وإنه زجاجة انسكبت فيها الطبيعة بأفراحها و تراحها وسعادتها وآلامها . ولذلك . ما ألذ سعادته . وما أمر آلامه .

* * *

« حين تهب العواصف : لاتثير إلا الغبار : وحين يهيج البحر لايكون إلا تلاطم الأمواج . وحين يثور الوحش . يرتفع زئيره : ويرتجف من يسمعه : ولكن ! آه : حين يهب الحب : يجعل القلوب غباراً . ثم يمزق أحشاءها . فيتلاطم بعضها مع بعض . فيبقى الإنسان بلا قلب . فيرتجف من الهمسة : ويقشعر من الحركة : وينتفض من النظرة : ويبيس من الهجران . وبذلك تفوق قوته وحده : قوى العاصفة والبحر والوحش . أما حين يهدأ ويسكن . ثم يقبل : فياعذوبته . .

يأبى المحب حينئذ أن يذهب محبه : ولو بقى من حوله الناس جميعاً

* * *

« قدر أبى إلا أن يكون غريبا : ومعنى رأى من الحتم أن يكون عجيبا » .

« يقولون : إن الروح عندما دخلت جسم الإنسان : ابتدأت دخوله من الأخمص إلى الرأس : وكأنما أراد الحب أن يمثل الروح فدخل الجسم من الرأس إلى الأخمص . ولعل أصدق دليل على هذا أن أول مايموت فى جسم الانسان أصابع رجليه . أما أول مايموت فى جسم المحب . فهو عقله وعاطفته . فلا تحسبن أن مذهبات العقل من الجسم تنحصر فى الخمر والنوم والجنون . فحسب لأن هناك شيئاً يخطف العقل اختطافا . ويستلبه استلابا . وتكون حياً ويقظاً ومتحركا أتدرى ماهو . انه المحبوب يهجرك ويقلاك : ويحب غيرك .

• • •

« يرق الحنان ويرق : حتى يتولد منه الحب . وتتجمع السطوة وتتجمع . حتى تكون نتيجة قسوته . ثم تغلى هذه السطوة فى ذاتها حتى تبلغ درجة المائة : وهنا تكون فرقة المحبين .

• • •

« إن الرجل إذا سار فى الليل البهيم : وتابع المشى فى حالك الظلام ترقب جهده : بزوغ القمر من سمائه : وارسال أشعته اليه . فاذا أطل عليه : لمح فيه سعادته : وأبصر فيه تحقق آماله : وصرف اليه جميع فكره . وناجاه بكل قلبه . فاذا أفل تولدت عنده الحسرة الأليمة وترك قلبه قطعا قطعا : ودارت به الهواجس : ويجمد فى مكانه . حتى

يكاد يكون صورة لبعض الظلام الذى حوله . وهكذا المحب : حين تشرق عليه حسناؤه : وحين تختفى عنه .

* * *

« إن فى الحب لصفات من الإله العلى الكبير : فهو الرءوف الرحيم . الكريم المعطاء : مادام المحبون فى أعلى درجات الطهر والبراءة وأسمى مراتب العفة والنزاهة . فاذا حادوا عن هذه الطريق : فهو المنتقم الجبار . يشعلها عليهم حرباهوجاء : وناوا حامية : من العداوة والبغضاء : والكراهيه والشحناء .

* * *

« إذا خطر فى ثيابه : قال للتراب . أسكن : فما أنا بالذى تعلق به»

* * *

« وفيه لذة تجعل المحب يذوب فيه ذوبانا . فيرهف له ذوقه : ويلطف شعوره : ويناجيه بجميع احساساته ومشاعره : ويوقف عليه جميع جوارحه وأفكاره . فإن أشار اليه هرع الى وحيه . واستجاب لندائه . وسابق الأقدار فى اجابته . وان أظهر له عين الرضا . ترك نفسه فى أحضانه . تنساب فيها انسيابا . وترتشف منها ارتشافا . ويستوى لديه فى هذه الآونات : كلمة الشقاء مع كلمة السعادة . وكلمة الهلاك مع كلمة النجاة ، مادام فى سبيله ومن أجله . وفيه رهبة وجلالة

تجعلان عاشقه يشفق منه : ويرتعد له . ويحقد عليه .

ها هوذا يريد أن يذوق كأسه فيحجم . ولكنه يختلس النظرات اليها على كثب . وما يزال يفتح عينا فى سمائه . ويسد أخرى . حتى تتلاقى كهرباؤه بشعاع هذه القين . فتجذبها . فيقع فى شباكه . ويرزح تحت أغلاله . ولسان حاله يقول .

« ولو كان هناك أعظم سعادة فى الوجود ، لكان الحب
ولو كان هناك أعظم شقاء . لكان الحب .

* * *

« تالله الذى لا الاه الا هو .

إن الفريق حين يكابر الفرق ، يكون أخف من المحب الذى يكابر الحب ، لحظات رهيبة ، تمر بالأول ، ثم تتداركه رحمة ربه . ويسلم روحه ، ولكن ، يابؤس الثانى ، كل حياته قلق وهلع ، وجميع أوقاته أنين وألم ، فان نظر ، فشوك الدموع يؤلم خده ، وان فكر فابرة الآلام تحز قلبه ، وان هجر ، فسلطان الهموم ينتزع لبه

* * *

« الشمس فى السماء ، ملكتها وبهجتها
والحب على الأرض ، ملكها وروعتها
وهى تمشى فى عالمها بقانون واحد

أما هو فيمشى فى عالمه بقانونين ، قانون المحب ومحبه

وهى حياة الانفس وفائدة الأجسام ، ولكنه رى العواطف وهدى العيون ، وسرور القلب ، وغذاء الروح ، وتفسير السعادة لأنها كنايته

***

« جمال الكون إنسانه : وإنسانه بقلبه : وقلبه بلذته وانتعاشه : ولن يتفتح القلب : ويطرب : إلا إذا فكر فى الحب : وتمتع بالحب : وإذا : فهو جمال الكون : وزينة الطبيعة :

« والرجل ينظر إلى الوردة : فيشتم منها عبير طيبا : ويرى فيها منظر آرائعا . فاذا أضفى عليه الحب جلاله : رأى فى الوردة معانى حياته ويعلم : كما أن الوردة تشرق برؤية الماء وتذيل إذا « فقدته : فكذلك هو فى مالئ إشراق الحب وأقوله : « ويبصر فى احمرارها زوال الأشياء وفناءها : ويستوحى من تذللها أن الأنسان يجب عليه أن يحرص على أوقات سعادته : ولا يضيعها هباء منشوراً . ويلمح فى صمتها أن القلب البشرى : لايكون قلبا : إلا إذا عرف كيف يواجه الخطوب : وكيف يصمد أمام صدماتها ؟ .

وما أشبه عين المحب بالأداة الممغنطه : فهى لا تلتقط من الأشياء

إلا ما يتصل بها من جهة حبها : وما عداه : إما أن لاتطرف اليه بالمرة واما أن تلمحه لمحاً .

« لولاه لما عطف أب على ابن : ولا أطاع ابن أبا : ولا هنأ مجتمع إنسانى بالحياة . ولا نادى شخص شخصا : عزيزى : حبيبى . بل . ولولاه لاختل نظام الكون وفسد .

« هو البلسم الشافى والداء العضال . وهو كلمة من الكلمات عند من لم يذقه . وقنبلة تنفجر وتحطم . عند أهله وذويه .

. . .

« فى لذته ينسى العاشق كل شىء . وفى البغض تنهار قواه حتى تصبح لاشىء . وهنا يعامله بكبريائه . ويجبهه بغطرسته . ويصب عليه العذاب المر واللوعة القاتلة . « ويريد الانسان أن يثأر ويظهر شموخه ، ويتخلص . ويؤذى ، ولكن هيهات له ذلك . « ان الجنين عندما يتحرك فى بطن أمه . قد يثأر لنفسه بعض الشيء بأيذائه لها . وتولده لآلامها ولكن المحب يثأر بأى شىء . « عزة الأقدار تراود الانسان فى بعض الأحايين . وانما الحب لايعرف المراودة ولا يراها من الحكمة . لأنها ليست من مادته . فهو حين يكون . يخاطب صاحبه . فى خضوعك ظفرك . وفى مكابرتك طردك . ولا وسط .

* * *

« وأما من جهة العشيق . فهو يركن الى الهجران ويطمئن اليه . اطمئنانه بسواه وكلما رأى وشاهد خول الآخر . وشدة اصفراره . وكثرة بؤسه وزيادة آهاته . قر واستقر . فإذا رآه يبادل الوعيد . ويعلن الحب وأهله . وينزل جام غضبه عليه . هدأ واستراح . لأنه يعلم أن هذا كله . اما جمرة الهجر تتلظى فى جسده . واما حب بعينه من شاكلة أخرى . فياشقاءه فى حاليه . ياشقاءه فى حاليه .

. . .

« أذا أحببت فأحذف منك أول ماتحذف . كلمة أنا . فهى لاتتفق وقوانين الحب وأعمد الى عاطفتك فاجعلها مشتعلة أبدا . يقظة دائما . لأن تياره شديد الحرارة . فإذا صادف منك استعداداً . تمشى معك والا اضطربت أنت . لتخريب أسلاكك . وعدم اصلاحك لها .

. . .

« انه لعجب فى كل شيئه .

يخلق من الظلمة البدر المكتمل . ويولد من اليأس بريق الأمل . ويسقى من العلقم شراب العسل . ويجعل من السكون حرارة العمل . فياله من سر عجيب . وهمام بطل .

« ويخرج من المحبوب . صورة هى المحيط وبقية السكون نقاط عليه . أو دارة من القمر : وجميع العالم نثرة من النجوم الزهر

حوله : أو قلبا وبنو الانسان شرايين جسم هذا القلب . « ومن هنا يكون المحبوب فى نظر محبة : وان دميما أجمل مخلوف وأبهى انسان .

« . »

« لعل السماء اذ نافست الأرض : لم تنازعها لخلقه آدم فقط : ولا لفساد ذريته فحسب وانما لأنها عرفت أن الحب سيظلل بعضا من ذراريه : وحينئذ فيكون فى الأرض شموس وأقمار وكواكب : تفوق شمسها وقمرها وكواكبها . ألاوهم الملائكة الأطهار المحبون .

* * *

« والانسان حين يحب : يكون ككرة أرضية : تحمل كرة أرضية مثلها : ويكون فيه هو وحده : زوابعهما وعواصفهما : وجمالهما وهيبتهما فإن هجر أو هجر : علم حقيقة نفسه الأصلية وتبين له أنه نقطة فوق هذه الكرة . فتثور نفسه ويغضب : لفقد أنه هذه القوة : وخسرانه تلك السيطرة . « وفى الواقع لهجرانه معشوقه الذى جعله كذلك

. . .

« ألا رحمة للمحب : يقسو عليه الحب : فيجعل نومه سهادا : وكحله دموعا : وعقله جنونا : وغناءه أنينا . « ألا حنانا له : وقتما يحدق ببصره : فلا يرى شيئاً : فينعكس شرره المتطاير الى جسمه : فيلتهب التهابا : ويشتعل اشتعالا « ألا رثاء له . ينقض الحب عليه بسورته :

فيفرق بين جسمه ويبعد بين عينه وفاظرها .

المستحيل أمام العقل البشرى مستحيل : الا اذا أحب صاحبه . فما يكون الا كلمة من حروف . بل تكون عنده أشهى من غيرها . لأنها تحمل ماده الألم . وتبطن معانى المشقة والمصاعب . « وما أحلى هذا فى نظر المحبين . وما أجمله عند العاشقين الواهين .

. . .

« ما الشمس الا نظرة من نظراته وما البدر الا همسة من همساته وما النور الا بسمة من بسماته . وما العطر . الا عبقة من نفحاته : فكانة جنة الآخرة . نشرت على الدنيا أريجها وحوريها وفتنتها .

. . .

« يا ألف الكون التى لا أول لها .

ويا ياء الكون التى لا آخر لها .

امتحنا حبك . وحب من يحبك . والعمل الذى يبلغنا حبك .

بسمة من النور

« هى تلكم الحرية : أرسلها النور من فيه المتلألىء : وثغره المشرق البهيج :

وبعثها إلى الكون بعد أن ضمها بين حنايا شفتيه ضمة اللوعة : ولمسها لمسة الحنان والرحمة : وقال لها .. إنى أحبك لأنك منى : وسامية سموّى وجوهرك من جوهرى :. ولذلك كنت بسمتى . وإنى أكبرك : لأنك تأبين الذل والانقياد وتسخرين ممن يرضون بالأدنى من الأمور . ولذلك أطلقتك . وإنى أخشاك : لأنك كالمعنى : إذا لم يحرص الذهن عليه فرّمنه : وكالجمال : إذا لم يكرم : انزوى فى تفاهله وكبريائه وكالسعادة إذا لم يكدح المجدون فى نيلها : لايستطيعون الوصول إلى سمائها : ولذلك كنت علامة « سرورى » .

* * *

« ونزلت البسمة فى ثوبها الفضفاض الرقيق وفى هيئتها المهيبة الرهيبة : تحيط بها أشعة الضوء : وتغمرها هالة من نظرات النور :. لو أبصرتها عين : لحسبت كأن نجوم السماء تدلت فى عناقيد ذهبية مرصعة : أو كأن لآلىء البحار : سئمت الخفاء : فبرزت فى خيوط سحرية رشيقة :

وأخذت البسمة تميس يمنة : ويسرة : وتزدهى شرقا وغربا : ثم نشرت ظلها ورفرفت بأجنحتها على دائرة الانسان: وكتبت: من كان فى كنف هذه الدائرة : فهو الحى حقا :والمتمتع حقا :والموجودحقا.

« وانعكست البسمة فى ذاتها : ورجعت إلى مصدرها الأول : لتتحول إلى كلمة تملأ الفضاء : « وتهز الأرجاء : وتستطيع أن تقيد ذويها بقيود وحدود : وإن كانت هى فوق الحدود والقيود .

وتحولت إلى كلمة : وبهذا خرجت من محيط الصمت : إلى عالم الأفصاح والبيان وكانت كلمتها . « كل روح من نور : وكل حى فيه روح : وكل إنسان حى : وإذا : فكل إنسان مشتمل على جزء من النور : وما دام النور لايحد بحدود : ولا يجرى عليه قانون : يجب أن يمرح هذا الكائن الحى : فى جو صاف صفاءه : ولايتيسر له ذلك لا إذا اتغمر فى الحرية التى هى هذا النور . »

* * *

« ولعمرى : لقد صدقت فى قولها : كما أنصفت فى صدقها : فأن الرجل إذا لم يتصف بالحرية : وتتمثل فى كل مايصدر منه : فهو الحى البعيد : البعيد عن معانى الحياة : لينغمس فى ظلماتها وجها لاتها . وكأن قبضة التراب التى أنبتته : قالت له : لاتبرح غير هنا لأنك من هنا . ولتكن فوق بهيكلك . وتحت طبقاتى أمانيك وآمالك . ولتعلم أن جسدك هو مكانى فيك . فأذا كنت اناقيرا لما فيك من عظام .

فهو قبر لما فيك من حيوية البشر . وميزتك عن سواك . أن فكرتك لا تلد إلا حيث تموت . وأن عقلك لا يعرف من شخصك أكثر من اسمه . وأن بقيتك . معدة وأضراس وبلعوم موصل بين هذا وذاك .

* * *

« البدر وهو يلمع ويزهو . كأنه يثأر من كوكب النهار . وغزالة الصحى . والوحش إذ يزأر ويصيح . كأنه يقول . « أيها الكون . قف عند حدك . فما أحب أن يتعدى على . والحب إذ يهيج ويثور . كأنه يعلن .

ياقوانين الحياة . لاتتصرفى فى دائرتى . من غير اذنى

والبحر اذ يضطرب ويفور . كأنه يبين ليس هناك سلطان كسلطانى ومن كذب : فليأت إلى ويتحدانى :

وإذا كانت هذه الأشياء كلها . عالة على شجرة الانسان . فهلا كان أولى ثم أولى أن تقتبس هذه الشجرة من هدا كله . معانى قوتها وتستعملها فى حدودها بعقلها ورويتها ؟ فتأخذ من قوة الوحش . صلابة العزم . وتأخذ من ثورة البحر . ضبط العاطفة وتأخذ من سلطة الحب . قهر النفس وتأخذ من إنارة البدر . إنارة القلب . ثم تنفث فى هذا كله . أشعة العقل . وكهرباء الفكر . لتحدث لنفسها أن الخروج جور . والقصور عجز . ثم بعد ذلك تقول للحرية . ها أنا قد

تشرفت بنشر ظلالك الوارفة على أرقى . وقد أعددت نفسى لمقابلتك فبرى بوعدك . وأنجزى كلامك . لأكون الحى حقا . والموجود حقاً . والمتمتع حقاً .

* * *

« ما أروعها من كلمة . تجرى بالفكرة . فتأبى المكث فيها . فتنحدر إلى القلب . فلا يتحمل بهاءها . فيوزعه على بقية جوارحه فإذا باللسان ينشط ليتكلم . واذا بالعين تحدق لترى . واذا بالنفس تستعد لتتفتح . واذا بالحرية توحى إليهم . من أرادنى : فليطلق نزعاته وليترك شهواته . فيرتفع عن المحدود والمقيد . ويسمو الى العالم المطلق ويجلس فوق عرش الطبيعة . وبهذا وحده يتهيأ لمعانقتى وإقبالى وملازمتى له ، وما أبدعها من حروف . أن وصفتها بالفضية الرقراقة لم تعد الصواب . لأنها وجدت منذ وجد الله ، ومنتهى معناها وصف حقيق لذاته ، وان نعتها بالذهبية الصافية . لم تعد الصواب . لأنها الحلقة التى حولها سفكت الدماء . وزهقت الأرواح . وطاشت القلوب

وإن قلت إنها الآن سوداء . لم تعد الصواب . وحسبك بيانا أنها تاج فوق رؤوس مملوءة بالمكر والدهاء . وأنها كنز فى يد لم تعرف قيمته . فطرحته . وظل فوق أناس استغنوا بسقف بيوتهم عن الاستظلال به . لخنوع فيهم . أورث البطالة . وضعف عندهم ولد الذل والمهانة ! .

« ألا إن أمة قدمت مهرها . وباعت دماءها هينة لينة فى سبيلها . فهى الامة الظافرة المنتصرة . وإن أمة اجتنبتها . وقنعت لاستكانتها . فهى فى ظاهرها شاة . تيسا ع عليها الذئاب . وفى حقيقتها . جيفة . تتقاتل عليها الكلاب . وفى معناها . هدف يصوب اليه المقذوفات من الرصاص .

وما تمثلها حينئذ إلا كالذبابة تطير فى الجو . فتكبر أمام نفسها . على ضعتها ، ويستولى عليها سلطان الغرور ، فاذا اصطدمت بأذن ، ضاع غرورها ، وقنعت بها ، وتقول فى نفسها هنا طنين ، وهناك طنين ، فان أخرجت ، وإلا بقيت ، ولو سهلت وسائل حريتها واطلاقها »

. . .

ولئن كانت المعانى مسلحة بسطوة الفكر فان الحرية أيضا ، مسلحة بسطوة القدر ، وما عد الاسلام فى ماضيه وحاضره ببعيد

هاهم الاولى ، جهروا بحرية الرأى ، وصدعوا بحقيقتها ، واصطدموا فى سبيل ذلك ، فلم يبالوا بما أنفقوه من جهد مالى ، أو عقلى ، أو جسمانى وثبتوا ثبوت الطود الاشم حتى جسموها فى عضلات أجسامهم ، ووصلوا إلى قمتها العليا ، وبذلك علوا وانخفض غيرهم ، وسموا ، ورسف سواهم

ثم دارت الايام دورتها ، وأخذت السماء نصيبها منهر ، ووارت

الارض نصبها الآخر(١) فخلف من بعدهم هؤلاء المسلمون الحاضرون أشلاء ممزقة ، وغثاء كغثاء السيل ، وجموعا تغر بعد يددها ، لا بعددها وأجساما تعجب بها ، ولكنها خشب مسندة : رأت الحرية جمودها وحقارتها ومهانتها وضعفها ، فترفعت عنها ، وأنفت الثقرب منها ، فتخبطوا فى دياجير الظلام ، وحاروا فى بسائط الأمور

. . .

, ائن سئلت ما الحرية . فقل . انها الوجود ضاق وانحصر . وضغط فصغر . وأشعل تحته . حين ذاب وانصهر . فخرج ما كان به من أذى وتبخر ما كان فيه من قذى . ثم بقيت الخلاصة الصافية ، والثمالة النقية فكانت الحرية . وهل هى الا هذه الام الرؤوم التى تجعل لبنيها الارض فراشا ، والسحاب وسادة ، والسماء لحافا ، ثم تأمرهم بأن لا يهنوا أمام مخلوق لانه من طينتهم ، وأن لا يحتقروا ضعيفاً ، لانه مثلهم ، وأن لا يهابوا أى حقيقة فى الحيـــاة ، لانهم موجودون لتذليلها ، وتسهيل صعابها وأن لا تسيطر عليهم الاوهام الكاذبة ، أو الآمال الخداعة : لانهم أبناؤها :

* * *

, كان الله هو الله ، لانه الحر المطلق ، وكان محمد هو محمد ، لانه

---

(١) هذا تعبير للموت .

العبد الحر . وكانت الحقيقة هى الحقيقة . لأنها الباطن اللامحدود . وكانت الروح هى الروح لأنها المعنى الفسيح . وكان الخلود . هو الخلود لأنه الغيب اللانهائى . وكان هذا كله عظيما عظيما : لأنه لم يخرج عن دائرة الحرية .

* * *

« إنما النخلة نواة مدفونة : وإنما المرأة ضلع من رجل : وإنما الإنسان قطعة من التراب . والحرية وحدها هى التى تسرى فى النخلة فتجعلها تنشأ وتترعرع : وتطرح وتزهر : وتخرج وتثمر . وهى التى ترتسم فى ذهن المرأة : فتخلق منها القائلة بدلالها . المسيطرة بحنانها . وتتمثل فى الرجل . فتوجد منه رجلا ينظر إلى الحياة نظرة الوداع المستقر الهادىء الآمن . كأنه يسرّ إلى الحياة أنه مثلها ، فاذا كانت هى تعمل بقدر ، فهو يعمل كذلك بقدر ، وإذا كانت هى تسير بقانون واحد ، فهو يسير بقانونين ، قانونها ، وقانون الحرية

* * *

ألا إنها المعنى الذى ينصهر فيه كل معنى ، والجمال الذى يفنى فيه كل جمال ، والجوهر الذى يرجع اليه كل جوهر

وكأن الله إذ جمع خلاصة التراب ، وصفوة الماء ، فكون منهما

الإنسان ، جمع إذ ذاك خلاصة السمو ، وزبدة الحياة ، فكون منهما الحرية

إن شخصا يستمد من قوتها ، ويجهد فى نيلها ، ويكدح للوصول اليها ، لهو الحقيقة . تذهب الخيالات : وتقضى على الأوهام . وهو المعجزة . تخرق العادات : وتغالب الأيام وهو الحسنة . تمحو السيئات وتخلد على صفحات الأعوام . وهو الصوت الذى يدوى . ويقول للكون : هات ما عندك من أحداث وخطوب . فلقد صهرت نفسى وعلمت قلبى . كيف يذيب الأحداث والخطوب .

* * *

« أفمن يعلم أن الحرية هى كذلك ، كمن هو أعمى ، لا يبصر ذلك ... ؟

لا يستوى الذى يعلمون ، والذين لا يعلمون

إنما يتذكر أولو الألباب

نفثة القلم .

« ضاق الفكر بجسمه : فاراد أن يستريض ويستريح : ليرضم العناء الذى ألم به : ويطرح الملل الذى نزاكم عليه : وله أن يضيق . وأن لا يضيق .

« أما ضيقه . فلا عتلال جسمه فى جميع حواسه . فذوقه عليل . وضميره مريض . وعاطفته جامدة . وصدره مملوء بظلمات الغطرسة والكبرياء . وجحود الأنانية . ودوافع الحقد والحسد . وأما عدم ضيقه . فمن باب خفة المصيبة عند عموم البلوى .

« هذه أجسام فقدت الشعور . فاستولى عليها داء النفاق الخبيث وهوت إلى حضيضه . ورسفت إلى عميق مداركه .

« وهناك أجسام ، لعب بها الغرور ألا عيبه ، ونفث فى حناياها سمومه ، ونشر عليها أباطيله ، فتبجحت فى إظهار نفسياتها على غير وضعها الحقيقى ، ولكن صولة الزمان أكبتهم على أنوفهم خاسئين مدحورين ، « وتلك أجسام أنهكها الجوع وآلامه ، وأضناها المرض وجراثيمه ، وبلاها العرى ومرارته ، فهى سابحة فى وجومها العميق ، وغارقة فى أحزانها المتلاطمة ، غاصة بجفاف حلقها المستمر

« وعلى هامش الوجود ، أجسام عاشت فى ظاهر الحياة ، وفشور

الخلق ، وقنعت بذلك ، وحسبته الخير كله ، والتقدم عينه ، فاستفاضت منه وملأت خاوى بطونها من حميمه ، وما علمت أنها بهذا تسقط من عين كل ذى نظر ، وترسب عند أصحاب العقول

. . .

« دنيا أصبحت على فترة من الحقيقة ، وعالم صار على قدم فى الرذيلة ، وقلوب رويت من ماء الفساد ، وعقول استولى عليها داء الجهل الطبق ، ونفوس خاضت فى بحار الأوهام الكاذبة ، فبئست دنيا من جهتها ، حقارتها ، وأناسها

« إن الطبيب حين يداوى المجذوم ، ويلاقى العناء بين طابع نفسه وطابع الواجب ، ويصادف المشقات فى التوفيق بين هذين ، تكون حالته أهون وأهون ، من الذى يجلس ليفكر فى أدواء مجتمعنا « وأضرار شعبنا ، وخبث أهله ، وانحطاط ذويه

. . .

« وخرج الفكر من أفقه المحدود ، إلى الأفق اللامحدود ، ولكنه قصر رحلته على شعبه المصرى ، ليتلمس وجدانه ، ويستظهر خباياه ويستطلع على حالاته

« كان البرق يلمع فى الدجى ، فيضيء ضوءه ، فيأخذ مأربه ، ثم يغيب غيابه ، وكان النظرة ، توجه الى غير ما يليق بها ، فيبصر ، ولكن

فى حذر ، ويطلع ولكن فى وجل ، ويرجع ولكن ، فى ألم وكان كالخيط من خيوط الشمس ينفذ الى ما يريد ، ولا يستطيع أحد أن يرده عما يريد ، ولكنه خرج لطيفا لطاقة المعنى ، وعاد مظلما ظلامة الجسم ، وخرج وفيه نخامة الكلمة ، وعنده بسمة الرغبة ، ورجع ، وفيه نحول الحرف ، وعنده حمى الهم ، « ليته ماخرج ، وليته اذ خرج ما نظر ، وليته اذ نظر ما فكر ، ولكن الشيء ملازم لطبيته

« لو تو الى الهم على الفكر ، أورثه الجنون . ونقله الى عالم الشكوك والظنون ، ومن حكمة الله الخالق ، أن جعل فينا اللسان الناطق ، والقلم المسطر ، فأملت الفكرة فعبر اللسان فنعث فى القلم فكتب

« الانسانية فى هذه الحياة مركبة من روح وجسم ، ولكل منهما توابع ليست للاخرى أما الروح فلها العقل وهدايته والشعور وحساسيته والقلب وحيويته وأما الجسم فيتبعه الجمود وظلمته ، وتلحق به انفعالات الشهوة ، ووجدان الغريزة والأغراق فى حب النفس وتقديسها ، والجرى وراء الأغراض والمآرب « وهذه ظلمات تراكم بعضها فوق بعض ، واجتمع نصفها الى نصفها الآخر ، فتكون منها السلطان المسيطر عليه ، والمهيمن على حركاته وسكناته « واختلطت الروح والجسم فتنازعا وتخاصما

هذا يريد الهوى الى السفلى وتلك تريد السمو الى العلا

ولكن ذلك النزاع وهذا الخصام ، لم يوجد البين بينهما . فهما

متلازمان تلازم الدمعة للعين ، وتلازم الحمرة للخجل ، وهنا تجلت قدرة الله الحكيم الخبير . وظهرت حكمة المولى الذى هو على كل شىء قدير ، وظل كل منهما يعمل على نقيض الآخر ، وعكس الاخر ، فمن تغلبت أنوار روحه على ظلمة جسمه ، فهو السامى فى ذوقه ، والمصلح فى أمته ، والكادح لسعادة غيره ، والمتفانى فى إنكارذاته ، وهو العظيم الجق فى حقائقه ومعانيه وخيالاته

وهل العظمة إلا شعاع من أشعة الروح ؟

* * *

ومن تغلبت ظلمة جسمه على أنوار روحه ، فهو الشقى فى الدنيا والاخرة ولا تراه إلا غداراً خائنا ، ولاعبا ماكرا ، وذئبا خاسرا ، ولا تبصره إلا سافلا فى طبائعه ، خسيسا فى صفاته ، دنيئا فى أغراضه

« وفى هذه الدائرة السوداء : تكونت الأغلبية الساحقة : لرجالنا الحاضرين : وأناس هذا الزمن الضالين المضلين .

« بأسهم بينهم شديد : تحسبهم جميعاً : وقلوبهم شتى : ذلك بأنهم قوم لايعقلون وأولئك قوم طبع الله على قلوبهم : وجعل على سمعهم وأبصارهم غشاوة : وحرمهم نعيم السعادة الحقة : لينغمسوا فى سرابها ويضلوا عن طريقها : جزاء لهم بما كسبت أيديهم : وعقابا على ما اقترفوه من آثام : وقدموه من خطايا : وشوهوه من جميل .

* * *

« تنازعوا لأنفسهم : فتشعب هذا النزاع فى قرارتهم : ثم ولد وقفش وفرع وأنتج : فكان حقدهم الدفين : وبغضهم المكين وكان حمقهم وطيشهم وغرورهم وعميانهم :

وكان بعد ذلك تأخر الأمة وانحطاطها . وذلها وشتاتها : وضعفها ومهانتها .

« ثم كان حاصل الضرب لهذا كله . فقدان الضمير . وطرح الكرامة : ونبذ الفضيلة : وقذف الأعراض . وهتك الحرمات . فحصلت الطامة : وادلهمت الخطوب.

« ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم : حتى يغيروا ما بأنفسهم : وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له . وما كان ربك لمهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون .

. . .

« نقاط من الشقاء تبعث : ثم تجسمت : ثم كانت أجساما من أيدى وأرجل . ثم شعت فيها الروح : فنتج شبهها بالأنسان . ثم كانت رجال هذا الزمان .

« وكان بيضة الرذيلة : سئمت من ولادتها معانيها : ومن إنتاجها آثارها : فأرادت أن تخرج شيئاً يحس ويلمس . فكان هؤلاء الرجال

« ألا إنهم فى غفلة ساهون : وعن الصراط السوى ناكبون :

ولأهوائهم الذاتية كادحون ومجتهدون . فبصرت بهم الخيبة عن جنب وهم لايشعرون . فلازمتهم فى كل شىء . وبذلك خسروا كل شىء

* * *

« ما أقفر مدرسة الضمير . لقد أجدبت . وغربت شمسها : وأفل نجمها . وهوى عالمها . فأجدب الأخلاص . وغاض الوفاء : وذهب الحياء .

فبرز الشك والرياء . حتى تشكل الخداع والدهان : وتجسم التملق والبهتان :

« خطوط الذل السود ارتسمت على جبين الأرض : وطبعت فوق ترابها . فلم تجد من يعارضها : فعلت إلى الحيوان الصامت : فخضع لها من جانب فقد أنه النطق : ووقف أمامها من جانب إدراكه . إضربه ترفى حركته الاحتجاج وعدم الخضوع . واستسلم أمامه تلاحظ أنه يريد أن يقتص منك . ولكن خطوط الذل تغلبت عليه . وارتفعت إلى دائرة الانسان : وقدمت عليه وهى راهبة منه . ودجلة أمامه . فمن صدها بكبرياء الحق . وهيبة الجد . وسطوة الشجاعة . وقوة الحرية . فرت منه . واختفت عنه . وانزوت فى ترابها .

ومن خنع لها : وقيد نفسه بأغلالها : وترك لشهراته العنان فى أحضانها : أحبته من شفافها : واتخذته وحيدها : وجعلته لباسها :

ولاتسكن إلا فوق رأسه : فتستولى على قوته المفكرة . وعقله المدبر وبهذا يندمج فيها بكل نواحيه . ويعلق عليها جميع أمانيه . وبهذا أيضا يكون الحى من غير حياة . والرجل من غير رجولة . والعاقل من غير قلب .

* * *

« وكان جملة من السحاب المتكاثف نشرت على هذه الأرض أحنحتها . وفرطت عليها ظلمتها . وخاطبت أهلها . « مادمتم تائهين فى بيداء الضلالة . وبعيدين عن ميدان الكمال . فاعلموا أنى سأظل مكانى هكذا . حاجبة عنكم نور السماء . ووحى السماء . ولئن كانت بين أيديكم الصورة :« والقانون . والأصل فأنا سأمنع روحه : وقوته . وجمال الأصل . . .

« أنظر إلى القرآن والنبي والشريعة : تجدها هى . لم يتغير منها شىء ولن يتغير منها شىء : ولكن هذا السحاب منع عنا النفع : وبر فى قوله : والواقع الذى لايحمل الشك : أننا نحن الذى منعنا أنفسنا نفعها : وجنينا عليها فى جميعها .

* * *

« فلو أننا استقمنا وأنبنا : لنفخنا فى السحاب فطار . ولنظرنا إلى الأرض فارتجفت . ولنطقنا بالكلمة فذهبت حيث لارجع ولاجدال

وعززنا القلوب . وأنطقنا الجوامد . ولقلنا للعالم كله : حدد موقفك منا . فأما ان تخضع . وأما أن نجتذك من أصلك .

. . .

« وما أحر الاستدراك هنا . فلقد أضلنا عمهنا الطبيعى . وعمهنا الاصطناعى . وعمهنا التقليدى : فاعجب أو لاتعجب : وإنما لتعلم أن هذا من قبيل الشر الذى لايجدى فى إزالته إلا مثله فى ظاهره . ومخالفه فى حقيقته . أعنى الخير .

« أليس هو يحتاج إلى جهاد نفس كبير : وجهد عقل مضنى . وألم جوارح متعب . ثم أليس أنه شرّ فى ذاته . ولكنه عين الخير فى نهايته .

« هذا رجل يمنحه القدر ببعض صفحاته . فإذا هو يتفنن فى إظهار شموخه وكبريائه . ويحذق فى إبداء تناسيه وتعاميه . وذلك رجل لايقدس إلا نفسه : ولا يتحدث إلى عن نفسه . كأنها كلمة . همزة وصلها كل من حولها(١) وهناك رجل استولت عليه المادة : وطغى عليه سلطانها : فهو إن تكلم : فانما يفرض . وهو إن أحب فانما المأرب وهو إن خدم . فانما لمقصد . لفظتهم الكرامة من فمها : فالتقطتهم

---

(١) فكما أن همزة الوصل مختفية فى كلمتها عند النطق . فكذلك هذا الرجل يخفى مل حوله عند التحدث .

الرذيلة بفيها . وأسكنتهم بين شفتيها أولا ليذوقوا معسول لذتها ، ثم لتنقض عليهم بأنيابها ثانياً

« ياويلهم من الأقدار وياويل الكون منهم !

* * *

« إذا قيل : إن عصفورا غلب نسراً . كدنا أن نؤمن . وإذا قيل إن محباً أذابته نظرة . أوشكنا أن نصدق : وإذا قيل : إن فيلسوفا تشكك فى فرقية السماء وأسفلية الأرض . قلنا إنها جمجمة فيلسوف . فأما أن يقال لنا . إن أمة بحالها . انكبت على شهواتها . ورسفت إلى أسفل مداركها . واستوى فى ذلك عالمها وجاهلها . وغنيها وفقيرها : ومصلحها ومفسدها . وزعيمها ورعاعها . فهذا هو الأمر الغريب الغريب الذى لا يؤمن العقل به . وإذا آمن لا يذعن . وإذا أذعن لا يبيح . وإذا أباح . تكلم وفى نفسه حسرات وحسرات . وفى صدره أنات وأنات . وفى عينه دمعات ودمعات . .

« أجل . إن هذا لهو الغرم الذى ليس بعده مغرم . والمفزع الذى ليس سواه مفزع . . !

* * *

ولئن ائتلف الماء والنار . وصح اجتماعهما فلا يمكن بحال من الأحوال أن تداهن الانسانية الحقة ما يساورها من المعانى الخسيسة . وما يزين

لها من عمل السوء . لأنها حينئذ تكون فى محيط من الحياة وهذه فى محيط آخر . وبين المحيطين برزخ عظيم جميل . عظيم لأنه الحاجز بين الخير والشر . وجميل لأنه الفارق الوحيد بين النفس والروح .

. . .

« وما دامت الحيوانية متغلبة . وآثارها هى المسيطرة . فقد رفع هذا البرزخ . وحينئذ ناشدتك الله . كيف تفعل شرارة النار الواحدة إذا أطلقت فى معمل من الحرير موجود فى الصحراء . ؟ ومن هنا نعلم لم اختفت عنا أضواء الفضيلة . ودرست معالمها . وذهب جوهر الحق فرأيناه كمطلق كلمة . وعاملناه كمطلق كلمة . فوقعنا فيما نحن فيه . وأحاطت بنا المصائب من كل حدب . وأقبلت علينا من كل فج . كأن جوانب الوجود الأربع . غضبت وثارت . فأرسلت هذه شظاها . .

* * *

« الضمير فى الإنسان إبرة الفضائل وسهم محرق على الرذائل . فإذا وجد كان له عملان جسيمان . يحز فى الجسم إذا اتجه نحو النقائص . فيؤلمه فيشعر كأنه يمزق أحشاءه . فلا يستريح له نوم ولا يقظة . ولا يهنأ له طعام أو شراب . فيرجع طائعاً أو مضطراً . وبذلك ينجو من هذه الشرور الأثيمة . وفى الوقت نفسه يحرض الإنسان على أن يزيل هذه الخبائث . ويقطع جذورها . وينظف الكون منها . وهذا هو عمله على أحراقها . .

« فإذا لم يكن هـذا الضمير . تسلطت عوامل الفساد . وخبث الباطن . فيرحب بكل خبث يقبل عليه . ويوجد له فراغا فى جسمه ليريحه ويطمئن فيه .

« وإذا كانت توابع الفساد تطوح فى الفضاء بسلامة العقل . وتغطى على جمال الفكرة . وتذهب برونقها . فكيف بها إذا لم تجد عقلا سليما . أو فكراً مفكراً . ؟

. . .

« لقد لعبت بنا الهواجس . وسيطرت علينا الأوهام . وغرقنا فى بحار المنكرات . وياليتنا إذ غرقنا اختفينا واسترحنا . ونكننا . لما كنا غرباء فى ظواهرنا . كنا كذلك حتى فى بواطننا . ولما تركنا الحسن وجماله . أفاض علينا الوجود القبح وخصاله . ولما تعمقنا فى صدأ أرواحنا . تعمقت الغريزة واستحكمت . ولما تركنا الحق وقوانينه نشر علينا الباطل مفاتنه وأضاليله . حتى صار علمنا جهلا . وسهلنا صعبا . وفرجنا كربا : وراحتنا تعبا . وحتى ذبل الضوء . وخفت النور . وأصبح الكون كله حقائق مؤلمة . ونتائج بشعة . تتقطع لها الأكباد . وتتفتت من أجلها القلوب . .

* * *

« ونحن نعلم . أن السماء مصدر للرحمة والنقمة معا . ومع ذلك .

فليس فينا عين تبكى . ولا قلب يرحم .

« ٠ »

« النقص فى ذاته ألم . فإذا تمثل فى الرحل : كان اثنين . فإذا عجز عن أكماله : كان ألما وألما وألما : وبثلاثته اجتمع فى أفراد شعبنا المصرى العليل . .

« هانت عليهم أنفسهم . فتهاونوا فيما يرفعها . وقدموا إليها الأدنى من منفعتها . واعتقدوا أن نعيمهم فى تحقيق رغباتها . فتفانوا فى ذلك وتكالبوا عليه . ونسوا فى سبيلها أرواحهم . فتغافلوا عنها . وتعاموا عن توابعها من شرف وذمة وضمير . وكأنى بالروح تقول لهم : ماقاله مغذيها ورسولها . إذا لم تستحوا فاصنعوا ما شئتم .

* * *

« لو نظرنا إلى قمة أهرام من الأهرامات . وجدناها كلما علت ضاقت . وكلما ارتفعت انحصرت . حتى تنتهى بنقطتها . ولكنها النقطة التى استطاعت أن تثبت نفسها وتغلب عواصف الرياح . أما لو نظرنا إلى أبناء هذا القرن : ألفيناهم كلما أرادوا أن يعلوا بأنفسهم زادوا فى الانخفاض : وكلما أظهروها بغير وضعها . شمخ هذا الظهور . وعلا وارتفع : حتى يصل إلى قمة الأهرام . بل يزيد عليها بكثير : ولكنه كالدخان : يعلو ليتوزع : ويرتفع ليمحى . .

« ذلك لأنهم حادوا عن الطريق المستقيم . فتركتهم الطريق المستقيم

***

« رجلنا اليوم : درعه النقمة . وسلاحه النزاع . ولسانه الباطل وديدنه تنقيص غيره : وطبعه الأنانية والأثرة : ومذهبه نفعه : ودائرته محيطه . .

« ويعلم الله ويشهد : أن هذه الآثام سترجع شظايا إلى قلبه . وستتكسر على قمة رأسه . وستقطع أحشاء نفسه . لأن الباطل لا يلد الا الباطل : والنقمة لا تحبل الا بالنقمة . فأما الزبد فيذهب حفاء : وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض . وهذا الصنف من الناس من القسم الأول . فسيصيرون هباء يذروه الرياح . وكان الله على كل شىء مقتدرا . .

***

« رحماك اللهم .

لقد فاض الأناء بما فيه : ولقد طاوز الحزن النفوس . ولقد بلغت القلوب الحناجر ولم يبق الا أن نظن بك أنت الظنون . فعجل اللهم بهذه الاسالة : واقض على تلكم الذبالة .

***

« هيهات لليل أن ينير حتى يطلع فيه قمره : وهيهات للصبح أن

يستبين حتى تشرق فيه شمسه : وهيهات للمصريين أن يتقدموا : حتى يحاربوا قبل كل شيء أنفسهم ويرضوا ربهم وضمائرهم .

واذا قيل : لا يستطيع أحد أن يخلق شيئاً . من لا شيء الا الله : فأنا أقول : ان الانسان هو أثر قدرة الله فى أرضه : ودليله فى كونه.

وما أشد اتصال الدليل بالمدلول : وما أكثر تعلق المنقول بالمعقول

أليس الله تعالى يقول :

« عبدى أطعنى . أجعلك ربانيا . تقول للشيء كن فيكون . .

* * *

اللهم هيىء لنا من أمرنا رشداً : وأفتح لنا أبواب هدايتك. ودلنا عليك . وأوصلنا اليك . وأهدنا الى طريقك المستقيم . .

السحر الحلال

❀❀❀❀❀❀❀

« بربك : لتسكبن على شيئاً منك : حتى أستطيع أن أكتب شيئاً فيك : وبربك : لتلطفن شعورى بك : حتى أملك نفسى وعاطفتى وأخرج للناس وحيهما من جهتك . وبربك : لتخرجن من معبدك : حتى تراك العيون : وتبصرك حدقاتها : وتتصل بك الأفئدة : وتتمتع بسحرك القلوب . وبربك : لتخطرن فى مشيتك : وتظهرن ابتسامتك وتكشفن إشراقتك : فأنك الجمال ولقد قيل : إن الله جميل : يحب كل جميل . !

* ◦ *

« استراحت الكائنات : أم هاجت : لايهمنك شىء : واستيقظت المخلوقات : أم نامت : حسبك الجميل الحى : ونشطت الألسن : أم هجعت : لايضيرنك نطق أوعى .

« أمنت فقررت فى وجودك : وهدأت فعظمت فى نفوذك : وما عليك إلا أن ترسل أشعتك : وعلى الكون أن يرمق لفتنك : ونبلت حتى لارمت المولى فى كل صفاته : وعلوت حتى عبر عنك فى

آياته ، وإن تعدوا نعمة(١) الله لاتحصوها : إن الله لغفور رحيم »

* * *

« فيه تسرح النفس سرحتها : وترسل الفكرة خطراتها : وتموج العاطفة موجتها فهو همزة الوصل بين صدق الخيال : وروعة الحقيقة ويعمق الخيال فى صدقة : حتى يظن أنه انقلب إلى ثانى شقه(٢): فيتحدان ويسيطران على كل لفتة وحركة : ويشفان فيسريان فى الجسم : فينظر الانسان إلى الوجود بأربعة أعين : كعينين : لأن الأوليين : قد اندمجتا فى الثانيتين . فبصرتا بهما : وبذلك يرى كل شىء أمامه جميلا : وهذا معنى قولهم .

« كن جميلا تر الوجود جميلا »

« ومنه نبعت الروعة . فلا ترى صاحبه إلا وترتاع منه : وتخجل أمامه : وما الخجل إلا استحياء : وما الاستحياء إلا قبس منه . تمشى فى الانسان : فأحرق بتياره جذور الجشع والنهم . وقضى على تهوره وهوسه . ورعرع بذور الخير والنبل . وهيأه لفهم الكمال على حقيقته فكان كالشمس . تمد بأشعتها الأرض وتنفعها : وفى الوقت نفسه تطهرها من جراثيمها . ولذا كان ارتياعك من الجمال : لأن قبس

---

(١) أبعد النظر تجد أن كل شى يتصل بالنعمة هو متصل بالجمال :

(٢) كناية عن الحقيقة .

استحيائك لايستطيع أن يثبت أمام أصله ولكنه لايذهب ولايفر . فيصير كمشعل بسيط أشعل فى ظهيرة النهار . فهو موجود ولا موجود فى وقت واحد . ومن هنا تحس بأنك عاجز أمام الجمال . وضعيف فى ملكوته . ولكنك راغب فيه : ومن هنا أيضاً . كان ارتياعا غريبا كما أن الجمال شىء غريب .

« اليه يرجع السر الأعظم فى بهجة الطبيعة : وحسن اجتلائها : وتأثير صمتها . وروح أزهارها ، فاسمه غاية الوصف ، ومعناه منتهى السمو ومجموعه دليل واضعه . وبرهان خالقه .

« أنظر بعينه التى فيك منذ وجدت . وأنت تتعاماها فى بعض الأحايين ، تجد أن صوامت الأشياء تنطق . وجوامدها تتكلم ، ولو تحسستها لتبينت منها أنها تناديك . « لاتستهن بى ، ولاتحتقرنى . فلقد بثنى خالقك ، وفى بعض مافيك » .

« وعليه وحده تبعات رضاك . وتمتعك فى هذه الحياة : لوسلكت مسلكه : ونهجت طريقه . وكنت من الذين عرفوه حق معرفته . فساروا على ضوئها : وبعدوا عن ظلمات الجهالة .

* * *

« إنه النسيم إذا رق . والسماء اذا صفت . وكأنه يوحى الى الوجود عليك أن تبالغ فى صمتك وعلى أن أمدك بجمالى ومن أراد أن يدخل معبده . فليطهر قلبه من كل شىء : الا ضميره ، وعقله من كل شىء :

الا طهر فكره . وليوزع سلطان روحه على بدنه : ثم يتقدم اليه ويعلن خضوعه لكل مايفرضه عليه . ثم ينتظر : حتى يسفر عليه . فيهبه مايهبه . ويعطيه مايعطيه .

***

« معبد أحيط بالرهبة . وفرش بالسحر : وطلى بالرغبة : ولذلك يراه الناظر ، فيعجبه ، ويشغف به : ثم يفتش على بابه ، فيجد الرهبة ملتفة حوله ، فيقع بين هذين العاملين ، وتحز الحيرة فى مكنونه ، فاذا علم الجمال صدق رغبته واخلاصها : كشف له المعبد عما طلى به فيسحره فلا يشعر الا وهو غارق فيه ، منغمس فى خلاله ، فيحس بلذة كلذة الرى ، وبتأثير كتأثير الكهرباء . ولكنها الكهرباء المضيئة لا المحرقة

. . .

« بسمة الثغر صورة من صوره ، فشبه بها كل رائع ، واقتبست النظرة منه : فعبر عنها بالسهام : واقتطفت الوردة بذرتها من آثاره . فأصبحت لؤلؤة البر . وأرته المرأة ضعفها ، فأفاض عليها بعضها منه ، فصارت جنون العقلاء ، ونار العواطف ، وعاصفة القلوب ، وتيار الجسم المشتعل الذى لايقبل هوادة ولاارتياحا ، وقانونه ، من أحسن فله جزاء الحسنى . ومن أساء ، نظر فى شأنه ، فان اعترف بخطأته ورجع الى صوابه ، سوح فى ذلك ، والا بعد عنه الجمال وتركه . ولا يبالى

« اذا تمشى(١) على التراب أخرج لنا حباً وعنبا ، وقضباً وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلباً . وفاكهة وأبا ، ثم يلقى على التراب ، لاتيأس اذ كنت موطىء الأقدام ، ولا تغضب اذ تصرفت فيك الهوام ، فعما قريب ، سيبلى كل قدم ، وتصير أنت موجوداً وهى العدم . انه روح من الروح ، لم تتجسم ليمكنها المشى مع الهواء ، ولم تتشكل لأنها معنى من المعانى ، ولم تر لأنها روح ، ولكنها حين تتمثل ، يصبح صاحبها عنقاء العقول ، ومصدر الذهول ، وموضع التقدير والاكبار والاجلال ، كأنه سأل الله أن يخصصه بشىء ، فاستجاب دعاءه ، فجعل طلعة الفجر وانشقاقه وبروز الشمس وانبثاقها ، لكى يذكر الناس بروعته فى غدوة النهار ، فيرددوه على ألسنتهم بقيته ، ثم مثله فى غروب هذا الكوكب وانحجابه ، لكى يشاهدوه ويتفكروا فى شأنه ، ثم بعد ذلك كسى السماء بذلك الثوب الجميل وزينها بنجومها اللامعات لكى لايعرب عن ذهنهم ، وينام وهو فى ذاكرتهم ، وهل هناك سر غير ذلك فى قوله تعالى ، (وسبحوه بكرة وأصيلا) وهل الذكر الا أعظم أنواع الجمال وأبهى حالاته ؟

« إذا نظرت إلى عالم الأرض وجدته : وإذا تفقدت عالم السماء ألفيته : وإذا لمحت الفضاء الذى بينهما : أبصرت ذراته تنزل مع

---

(١) لاشك أن الماء يخرج ذلك . وهل منظر الماء غير الجمال ،

الشمس : ولكن . لاتنحجب بانحجابها . وتتهادى مع القمر . ولكن لا تغيب غيابه .

« ألست تعلم أن هذين : ماهما إلا آلتان من آلاته . وغصنان من شجرته : والدليل على ذلك الهنيهة التى قبل طلوع الشمس : والساعة التى بعد غروبها . ؟

« علم الله أنه الجوهر الأزلى الذى لا يفنى : فاتخذه وصفا : وأنه المثال الحى التطبيق . فاشترطه ميثاقا : وأنه الدائرة التى تسع كل شىء : فجعلها مخلوقاته . ثم قرر سبحانه أن من يشذ عن حده : ينقلب إلى ضده : ويبعد عن اسمه .

« وإذا مسه أحد بسوء : قال له : أيها المغرور المفتون : إذا كنت أنافيك : لا تستطيع أن تتفوه بشىء من القبح : أو تنطق بكلام من السوء . لأنى لا أنفق وذلك : وإذا لم أكن فيك : فاعمل ما شئت : فأنت منقص نفسك . ومنحط إلى مداركها ومهاويها : وحسبك حينئذ أنك بحق غير جميل . .

« قل لمن عرفه : كيف هو ؟ يجبك بأنه من اللطافة بحيث لايحجب ما وراءه : ومن العظمة بحيث لا يجهله أحد . ومن الرفعة بحيث ليس فوقه شىء . ومن التواضع بحيث يقبل على من رغب فيه . ولو من أسالة الناس وعامتهم . . وبأنه النور الثابت الذى يطبع نفسه على كل

مظاهر الطبيعة : فيكسبها الضوء . يبعث فيك سرور النفس . وسلام القلب . ورفاهية الفؤاد . .

وبأنه القلم الصادق الذى يصور لك الفرق بين السماء والأرض : لا من جهة النجوم والتراب وإنما من جانب ما يصدر من هذه . وينبع من تلك . .

* * *

« لا تدرى . حين يشع فى جسمك . من أى عطفيك دخل : ولا من أى جوارحك نفذ . ولو لا ما يتجدد عندك من شعور . ويتبدل لديك من حال : وتحسه من لذة وانتعاش . وتجده من انشراح وابتهاج . ما أحسست به . وكأنه بذلك يريد أن يقول لك :

« ها أنذا أشرقت عليك باختيارى . ووصلت إلى أعماقك من غير أن ترانى . فإن حافظت . . وإلا أتركك وأحرج منك من غير أن ترانى . .

« وعند ما تحكم عقلك . وتتدبر فى نظرتك . وتخضع لضميرك . وتسلم نفسك . يصفو أمامك الوجود . ويتولد فرحك من كل ما تراه وتستطيع أن ترى السيىء حسناً . لأنك تبصره من جهة خيره . أعنى من جهة أضراره التى تتمثل لك فتصدك عنه . وتبعدك عن سبيله . وهذه هى عين الخير . وعند ما تكون غير ذلك . يفجؤك الوجود بغير ذلك . .

« تربت أم لم تجعله فى لبانها . وشق طفل لم يتذوقه منها . وخسأ رجل لم يجعله فى حركاته وسكناته . وسفلت فتاة . شوهته بنقصها وحطمته بهرم زينتها . وأذهبت روعته بقبيح تصنعها وثقيل تدللها . « وهل هو إلا المغنى الحساس . الذى يأبى حين يكون . ألا يكون إلا وحده هو المنصرف والمسيطر . والذى لا يقبل معه شريكا . لأنه ليس له شريك . ؟

« سبحان خالق الورى . .

أبدع الإنسان . وجعل لكل جارحة منه موردا لغذائها . ولما كان الجمال أشرف الحياة جعله غذاء لأعظم خصائص الجسم ومميزاته ألا وهو الروح البشرية . .

« وإنه لحبيب اليك . شغوف بك . حريص عليك . لأنك منه . ولأنه لا يقدره من المخلوقات غير جنسك . والغزال نفسه . لا تدل خفة حركاته . ولا جمال مشيته . ولا بهجة منظره على أنه مقدر لقيمة الجمال . وإنما هى طبيعة جعلت فيه . وجبل عليها . فنشأ هكذا . . كما أن حب الجمال لا يمنع من أن يغضب اذا أهين . فلئن كان من الجمال الدعة والسكون . فإن منه أيضاً التحرك والثورة عند التعدى على الكرامة . .

* * *

« إذا أشرف نجم فى السماء . على بحيرة صافية فى الأرض . وجدت له خيالا يلمع : وصورة تبرق . وشبهايزهو . ولكنه يرى كأنه مضطرب ومنتفض : فلا يثبت فى مكان . متع بصرك من هذا المنظر لروعته وبهائه : ولأنه يمثلك أنت بذاتك عندما يثير الجمال فى نفسك النشوة والإعجاب . ويقبل عليك . وتكون صورة له : تضطرب إضطراب النجم : لما ينفثه فى بشريتك من سحره . حتى تعلو بكلتيك إلى عالمه : وهناك يصهرك ويهيؤك : حتى تصير معنى من معانيه : وآنئذ : فلا عجب أن تكون كالنجم البحرى من جهة أخرى : تظهر كأنك فى متناول اليد : وأنت فى عالم آخر عمن حولك من الناس ومن مباهجه أنه يقول لك : أنظر إلى كل شىء بمنظارى : فأنا أستطيع أن أغير وأبدل ما تقع عليه عينك : حتى تعجب به . ولو كان هو فى ذاته غير ذلك .

ولعل الحكمة التى تقول « إذا أردت إصلاح نفسك . فأت بمرآة وانظر فيها وجهك . فإن كان حسناً استحييت أن تضم إلى الحسن قبحاً . وإن كان قبحاً . استحيت أن تجمع بين قبحين » مستمدة من هنا لأنها تريد أن تبين أنك تصلح باصرتك : وتجمل نفسك ، وإنسان عينك . فذلك بذاته يجمع جمالك . فإذا صلحت صلح . أى نظف مما يعلق به من الشوائب . وفى هذه الحالة اذا عرضت نفسك على مرآة الجمال . وجدتها صافية صافية وتبالغ فى هذا ، حتى تكون المرآة

البشرية . يميزفيها بين الحسن والقبيح . لأنها تكون بجملتها دليلا ناصعاً على سمو الجمال . وعظمته . وعلى قبح ضده وبشاعته . وبهذا تكون مرآة ناطقة وتلك من خصائص الجمال .

« وهناك جمال ظاهرى وهو الذى تبصره عينك الظاهرية . ثم يطفو على ظاهر بشرتك . ويترك عندك أثر الرغبة الجامحة ، والعاطفة البهيمية ، وذلك من قشوره التى لابد منها عنده ، ليمتحن بها ذوى النفوس التى تجردت من حيوانيتها ، وارتفعت الى العالم المطلق ورأته كل ما تريده وتبتغيه ، فتزيدت منه ، وتفننت فى هذا التزيد حتى كان همها أن نسكن فيه ، وليميز هؤلاء من الذين رسفوا الى دركات الأغراض والمطامع ففرضت عليهم الأهواء سلطانها ، وجرتهم الى شرورها ، وعبدتهم للرذيلة ، ولو لا هذا كله ، لكان الجمال من غير قشور يخلب بها ، ويفتن بواسطتها .

. . .

« ما أروعه حين أطل على من شرفته التى هى كل الكون وافتر عن هذه الابتسامة التى كانت فيها حمرة الورد ، وبريق الزهر ، ولمعان الكواكب ، وكان فيها اشراق الصمت ، تعمد به الحسناء أن تكلم ما خفى عنها من القلوب ، ولو لم أنظر اليه بعينيه ، ما استطعت أن أستوضحه ، وألمح هذه الابتسامة الرباعية التى أمكنها أن تكون

خلاصة الوجود فى الحسن وجملته فى التأثير ،

« وما أجله عندما سمح بإفضاء كلمات إلى ، كنت لا أسمعها بأذنى بل بجميع جوارحى . حتى جعلنى هذا الافضاء أزداد يقينا بأن الأنبياء عليهم السلام . كانوا يلاقون شدة أيما شدة وقتما يتغزل عليهم الوحى من السماء ، وضح لى هذا وسفر : حينما كنت أسمع كلمة الجمال ، فتدور بى الأرض الفضاء . ولا أسكن إلا على قوله ، أينما ذهبت ، فأنا معك لأنى الكل فى الكل ، ولقد قال ، أنا الذى أنتهى من حيث أبدأ : لأنى الذى أبدأ من حيث لا أنتهى ، من أفضت عليه نورى ، انتقل إلى العالم العلوى فى لمحة ، ومن أسقيته من كأسى . ذاق رحيق الجنة فى طرفة ، ومن رفرفت حوله ، حامت حوله الأنظار ، وأحاطت به الأفكار ، وراقبته العيون أينما حل وأينما سار ، أنا المعجزة الكبرى والآية العظمى ، التى تبرئ الأكمه والأبرص ، وتحيى الموتى بإذن الله

أنا الاسم الذى نبع من حقيقة النور الأذلى . لأنه خالد خلودها والكلمة التى حروفها الرقه والصفاء ، والإذابة والفناء .

أنا الجمال ، قدسنى الشعراء ، وألّهنى المجنون ، وعبدنى العاشقون

. . .

« آه ثم آه من فرط حسنه ، إنه يقول للعقل البشرى حينئذ قرّ قرارك ، أو فرّ فرارك . فوجودك وعدمه سواء ، وللقلب الإنسانى ذب أو لاتذب ، وأخفق أو لاتخفق . فذلك عندى هراء وللعاطفة

اشتعلى أو لاتشتعلى ، وتلسى الخلاص أو لاتلسى ، فأنت فى الأرض وأنا فى السماء ، ويقول للنفس : تشفعى بوجدانك أولا تتشفعى ، فالفناء فى عين البقاء . وللكون ، أحقد أولا تحقد فأنا الوحيد الذى لم يؤثر عليه هذا الداء ، ثم يقول ، اهتفوا معى من أعماقكم . جلّ من له فى أرضه وسمواته العظمة والكبرياء

« هو آخر النفس وأول الروح فاذا تمكن المبدأ تمكن هو ، وعلى قدر صفاء الآخر ، يكون صفاؤه ، فالنفس فى مبدئها أمّارة ، فان علت بتنازلها لأمارة الروح ، قضت على الفروق التى بينهما . وهى حينئذ تكون فى آخرها ، وهذا هو الجمال ، اسمع قوله تعالى « ياأيتها النفس المطمئنة : ارجعى الى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى

« حنانا لمن شغفوا به : وابتلوا بحبـــه : ووقفوا أنفسهم على التمتع بآثاره ، إنهم يرونه فى كل بسمة ، ويبصرونه فى كل وردة . ويشتمونه فى كل زهرة ، ويجدونه فى كل نسمة ، فأما إذا أشرق عليهم هو كان جحيمهم من حيث لايشعرون ، وسعيرهم الذى فيه يتقلبون ونارهم التى اليها يهلعون ، وجرحهم الذى منه يتأففون ، وهدفهم الذى عليه يتقاتلون ، ومن أصابه أو لم يصبه فهو المجنون

. . .

« لهف نفسى على أناس ، حسبوه فى الحواجب فزججوها ، وفى العيون فكحلوها ، وفى الأصوات فرققوها ، وفى المشية فنظموها وفى اللفتة فجنحوها ، وتركوا أنفسهم فى ظلمات الغرور والجهالة ورزائل الحمق والوقاحة وانخفاض التعالى المزيف ، وتمشدق الجد المتكلف ومادروا أنهم بهذا أذهبوا الجمال من أبراجه فيهم ، وقطعوا حبات عناقيده من أعناقهم ، وأطفئوا سراجه الذى كان يشعه فى أجسامهم : فصاروا من الذين يحسنون أنهم يحسنون صنعا : وأولئك بعينهم هم الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم ، وما كانوا مهتدين

« كن من عاشقيه ، ولكن كن من راهبيه ، فإنك اذا ، تحرص على رضائه ، ويمكنك كبح جماح عاطفتك ، واستيلاؤك عليها ، فيكتبك عنده من خلصائه ، وتستطيع أن تواصله ويواصلك ، أما اذا عشقته ، ثم طمعت فى الوصول اليه من غير أبوابه ، وفهمت أن عدم الهيبة والوجل ، عاملان من عوامل فرض نفوذك عليه ، فقد جنيت على نفسك ، وأكسبتها الخسران المبين ،

« حسبك منه نظرته ، ولتقنع منه بإشارته ، وطالعه : ولكن من بعيد ، واملأ نفسك بحبه ، مع تحكيم رأيك السديد ، فإذا أطل عليك ، ولمسك بأجنحته ، كنت السعيد السعيد : فان ترفعت وسموت وطهرت ، وإلا كنت الطريد الطريد

« إذا قيل لك : ما الجمال ؟ فالجمال أن لاتتكلم : ولا تحاول أن تتكلم فحين لزومك الصمت : يغارهو على نفسه : فيسرى فى جسم سائلك : فيراه فى كل شيء : وتكون أنت قد كفيت مؤونة الجواب

« وإن أردت أن تتكلم فقل :

إنه السالب للفكر : والخاطف للبصر . والمملوء بالعبر . والمحاط بهيبة القدر ، علا حتى يئس قاصده : ودنا حتى لمسه نائله :

ولا تدرى : أهذا سياسة منه أم حياء ! أم عظمة التواضع . أم تواضع الكبرياء وهل هو إلا فن المجانين . ونبوغ العقلاء .

* * *

« أيها السحر من غير ساحر . والموجود من غير فناء .

لتعلم أن القلوب تهواك . والنفوس تعشقك . فعاملنا معاملتك . معاملتك التى لاتقبل الخداع . لأنها اليقين . والتى لاتقبل المراء ، لأنها الصدق ، والتى لاتخالجها القسوة . لأنها الحنين . والتى لايفارقها الجلال . لأنها الخلود . ولأنها منك .

* * *

تبارك الله إذ خلقك .

وتباركت أنت إذ كنت أعظم آثاره .

منحة تلد محـــنة

« الحياة بسمة . ولـكن الفم الذى يبسم . لا يلبث أن يعبس ، لما يتذوقه من الأشجان والأحزان ، والحياة شروق ، ولـكن الشمس حين تطلع وتتوهج ، لا تغتر أن تتدلل وتستبى وتصبى لتظهر للوجود فضلها ونعماءها ، فتختفى بعد إشراق ، وتتحجب بعد ظهور ، والحياة أمل وللامل رونق جذاب ، ومنطق خلاب ، ولـكن حياله فتنة ، وحقيقة محنة

ولقد اجتمع الأشراف والعيوس ، والحقيقة والخيال ، فى بنت من بنات حواء شاء لها القدر ، وشاءت لهـا الأيام أن تجعلها مركزا لنقاط تحولها ، وأساسا لأهدافها ومراميها

* * *

« قدر يتصرف ، ودنيا تسخر ، وزمن يرفع ويخفض ، ووجود يخفى ويظهر ، والإنسان أضحوكة الجميع ، وألعوبة الـكل ، يقلبونه كيفما يشاءون ، فحينا يصبر ويثبت ، ويعلم أن فى هذا خبره ، ولو تحرك ما أجدى شيئاً ، وأحياناً يجزع ويثور ، وبهدر وينذر ، ثم يهمد كالعاصفة ، يغبر منها الفضاء ، ثم تنكشف

وكل حى على الشر ما هو على الخير ، وعلى الخير ما هو على الشر ، كفتان لا تثقل إحداهما إلا لتخف الأخرى ، ولكن لا تخلو من أصلها فليس هنالك شيء يخلص إلى الخير وحده ، أو يجنح للشر فقط ، فحاذر من الخير أن يذهب ، ومن الشر أن يتغلب .

وإن القلب كما تسيره ، فنشته على أن يثبت ، وعلمه كيف يقابل ، وبث فيه روح الشجاعة ، والبطولة ، وقل له ، كما ينزل الطعام الى معدتك مهضوما بمضفه ، جاهزا بجميعه ، يسهل عليها تحويله الى موادها كذلك أريد منك أن تخرج الى الحادثات مهضومة ممضوغة ، مقطفة الأجزاء ، مفرقا بعضها عن بعض ، فيمكننى أن أقابلها ، كما ينبغى أن أقابلها

« ومصائب الزمان أقسى من ناد الآخرة ، لان النار شيء أمامك ترى احرارها وتبصر وهيجها ، فيكون ذلك عاملا على ذهاب قلقك العقلى . وإن بدل الجسم وغيره ، ولكن شيئاً يدهمك ، ويلم بك ، فيشتت جمعك ، ويشرد بلبك ، ويثقل حركتك ، ويلصقك بالارض لهو المصيبة فى ذاتها ، والنكبة فى حقيقتها والطامة بمعناها ، والنائبة التى لا أدل عليها من أسمها

« وكأن المقادير علمت أن الانسان هو الخصيم المبين ، والمجادل

الأثيم . فجعلت عصاها المؤدبة . هى المصائب . تقبل عليه . فيتأوه منها ويتحسر .

« كانت هذه المرأة . فاتنة الحسن . مشرقة الجبين . واضحة المحيا تلازمها بسمتها التى تجعل وجهها . كأنه قطعة من النور . وأفاض عليها الدهر فيما يفيضه . نعيمها بزوجها وولدها اللذين جعلاها فى بحبوحة من الترف والنعيم . وبسطة فى الرغد . ونقلاها إلى عالم الطمأنينة وراحة القلب . ودرجا بها إلى أن أجلساها فوق عرش الطبيعة . فكان لا يصلها ببقية الكون إلا أسئلة وأجوبة .

« ولكن يد الأزل لا تنام . والذى لا ينام . يثبت هو . ويؤثر فى غيره . أما ثباته فلأن الحركة من صفات الحوادث . وهو منزه عنها . وأما تأثيره فى غيره . فلأن الحر المطلق لا يتم إطلاقه إلا إذا نفذ كل ما يريد . ويقع كل ما يقدر رغم من يعارض . وكره الواقفين الثائرين .

« وكأنها إذ توعد . تقول للانسان ، لا تفتر ولا تشمخ . فأنا نونك ، وأنت نقطتى ، فإن استقمت كنت معك نون نسخ . وإلا كنت نون رقعة .

« وهل من العجب أن تبتلع السمكة الكبيرة مفردات الديدان الضئيلة ، حتى يكون هناك أى عجب عندما يخفى القدر الإنسان ؟؟

* * *

« وتقدمت السنون والأعوام. وكأن القدر حاسب نفسه على تفريطه فى معاملة هذه المرأة : فمضغ بين أضراسه زوجها : وعصر بين رحاياه شبابها وخطف منها بريقها ولمعانها : ثم تركها كمطلق امرأة ، تعامل بأية معاملة : وبذلك انحصرت نقطة سعادتها : ومهبط آمالها . وكل هناءتها وأفراحها فى ابنها الوحيد .

« كان أحدوثتها العذبة . وأنشودتها الساحرة : وأغنيتها المطربة ، وكان شمسها فى النهار : وقمرها فى الليل ، وحلمها فى النوم : فطيفه لا يكاد يفارقها طرفة عين : وكان لها الزهرة اليانعة تشع من حولها : هالة من الحسن والبهاء ، وكان لها نوراً ينبعث من الأرض : ليضيء لها بأشعة البشر ظلمات الحياة ، وكان المنحة التى تلد المحنة : والنعمة تنبث النقمة .

***

« لقد سجلت الأقدار للشرق أسمى آيات الفخار وأبهى أكاليل الظفر : وأروع علامات المجد والعظمة ، وأفخم أساليب التقدير والاكبار : ولكنه نسى أو تناسى أنها هى هى : فارتاح لعزها : وركن الى لين وطائها : واغتر بخداعها وفتنتها ، فانقضت عليهم بأنيابها : وقلبت لهم ظاهر حركاتها : وعكست أوضاعها رأساً على عقب ، سنة الله فى خلقه ، ولن نجد لسنة الله تبديلا .

« انهمكوا فى الترف والملذات ، وغالوا فى انهماكهم : حتى صار الترف جزءا منهم ، أو صاروا جزءا منه ، فليسوا إلى فراقه من سبيل ، وفضلوا طريق الغى والضلال ، على طريق الهدى والرشاد ، وطرقوا عوامل الفساد كلها ، تاركين أبواب الخير مقفلة موصدة ، يخيم عليها كابوس الرذيلة والانحطاط ، فغابت شمس السعادة ، وأقبل ليل الشقاء ، ينشر أعلامه السود فوق ربوع الدولة ، واجتمع ظلام الكون إلى ظلامه ، وتراكمت جيوشه الهدامة ، تثير الغبار شيئاً فشيئا حتى أوجدت الاضطراب فى كل قاصية ودانية ، وعممت الفوضى فى كل ناحية ، وإذا نجم المجد بأفل ، وإذا مصباح الحرية ينطفىء ، وإذا نور العزة يذبل ، وإذا كل منهم يحوش فى دمه وأعصابه ليكون كالحجر والتراب .

* * *

« زلزلة غريبة فى بابها ووحيدة من جنسها ، لأن مألوفها يخرج النفع ، ويطمر التراب ، ولكن هـــذة الزلزلة أبطنت الخلاصة ، وأظهرت العلة ، أخفت هؤلاء الأناس الذين كانوا العضد الأيمن للسيادة الحقة ، والمثل الجميل ، للتقدم المتواتر ، وعنوانا نبيلا على الظهور فى ميدان البطولة ، وأبقت هذه الأسالة من الناس ، قلوبهم فى ألسنتهم ، وأيديهم فى كلماتهم ، وبطشهم فى ثرثرتهم ، وحقهم فى

أصواتهم ، ووعيدهم فى هتافاتهم .

« ترى الواحد منهم فيداخلك الشك فى صحة أن المسخ رفعت اثاره عن أمة محمد ، وتبصر من أعماله ما يجعلك تؤمن بأن الساعة قربت وأوشكت ، ويوقعك فى حيرة بين أن تحرص منه أو تقدم عليه ، وتصرف جهدك فى الحذر من شروره وآثامه ، والحذر على الإنسان شر مستطير ، وعذاب أليم ، لأنه تقييد لطبيعته ، وكبت لحريته ، وتسمع من الكلام الحلو الطريف ما يصرف ذهنك عن التفكير فيما وراءه ، فتنسى فيه ذاتك ، فيكشف لك عن نابه ، فتخسر ذاتك .

« قوم هم الأذلة الصاغرون ، والنفر المتمشدقون ، والجهلاء والطاغون ، والنزلاء الغارقون ، فإلى متى يا ترى ، عن غيهم يرجعون

« عظموا فى أنفسهم ، فصغروا فى أعين غيرهم ، فاستطاع العدو ، أن يلعب بهم ألعوبته ، وينشر عليهم ظله وعدوانه ، ويدس فيهم كيده وطغيانه ، وينفث فى دائرتهم سموم الفشل والاضطراب ، ويغتصب من الأراضى ، ويهين من الكرامات ، ويعتدى على الحرمات ويسلب من الحقوق ما شاء له الهوى ، أن يسلب ويغتصب ، ويعتدى ويهين ، وأحدث من أسلوب الاستبداد والاستعباد ، ما يقشعر له وجه الكرامة خجلا ، وما يضطرب له جبين الفضيلة فرقا ووجلا ،

فلم يكن هناك بد من اشتعال أوار الحرب ، واصطخاب جيوشها ، وارتفاع وهيجها ولهيبها وكان موضع الحرب فلسطين

* * *

« حب البنوة خليق وحده بأن يكون على قلب الأم نارا تضطرم وسعيراً يتلظى ، وزفيراً يتهلب ، وشعلة تتوقد .

وقد كان لفقد الزوجية ، وكبر السن واحتياجها لعائل يعولها ، ويقوم بشؤونها ، باعث على زيادة هذا الحب فى قرارة قلبها ، أزيد من كونه ناشئاً من عصارة اللحم والدم ، ولكن الأخبار أخذت تترى بنكبات العدو ، وترادف طغيانه وجبروته ، وتتابع فاذفاته التى لا تبقى ولا تذر ، فتحرك الضمير الإنسانى فى نفوس بعض المسلمين ؛ والضمير قوة الإنسان وسلاحه الباطنى ، كما أن السيف فى يده قوته وسلاحه الظاهرى ، وإن لوخزاته لألما ، وإن لقلقه لمضضا ونصبا ، فأخذت تعلو وجه الفتى كآبة الخنوع والخضوع ، لهذا العدو الغاشم وأخذت تتاجلج فى صدره غضبة الحق ، يساعدها حبه الفياض لنصرة الكرامة والشرف ؛ ودمه العربى ، الحر الكريم ، الذى طالما بيع هيناً ليناً فى سبيل أن يسود الاطمئنان عرش القلوب ، فاجتمعت كلمته ، وصرخت صرخته ، ودوى صوت الحق فى أحشائه حتى مج الطعام والشراب ، وكره الحياة بما فيها ومن فيها ، وأعلنها كلمة

صارخة . « راحة الضمير فوق راحة الترف والنعيم » .

وابتدأ يعد عدته لمشكلتين من مشاكل الوجود . وعقبتين من عقباته . إن كان للوجود مشاكل وعقبات : مشكلة مصارحته لأمه بما اعتزمه ، ومشكلة إقدامه على الموت حيث لا لقاء .

وما ثانيتهما بأخف عنده من الأولى . لأنه يعلم ماوراء هذا الأمر من اللوعة والأسى . واللهفة والحنين .

* * *

« ما كان يرد على خاطر أن شرذمة من الناس . تقف بجوار باطلها . وتصف أقدامها لقدمه . ثم تنادى به حقا . وتطالب به جداً وتعلن عدمه ظلما . إن ذا حق ينازعك . ويغالبك . ويخصمك ليكون جديراً بأن تقف أمامه . وترده ما استطعت . وتكبره وتجله حتى إن انهزمت . ولكن الذى يؤلم ويؤلم عدد قليل . بعدوا عن الحق بقدر قربهم من غرورهم . يريدون حربك ، ويسلبونك نصيبك ، ويدفعونك من جسمك . ويبعدون روحك عنك . ويقاتلونك فى دارك ويدعون أنهم الصدق وأنت الضلال .

« قتل الإنسان ما أكفره . ألم يخف لسانه من الذى خلقه . فيرجع عن الأخطاء يرتكبها . والهفوات ينطق بها فى كل لمحة . ويقصد من الادعاءات المزورة يخرجها ويلبسها ثياب الحقيقة المشوهة . ويقل

من تعمقه فى المكابرة ، لذاتها ، ولو جعلت على الوجة غيرة ، ترهقها قترة ، ألا إن هؤلاء هم الكفرة الفجرة

. . .

« جلس الفتى يفكر ، فأبعد خياله فى صفحات الأيام المقبلة ، فرأى أن أمة الدموم تفقد بفقده الهناءة فى الحياة والتعاون فى الوجود ، والراحة فى القلب ، واللذة فى العيش ، وستثوالى عليها كؤوس الشقاء وآلامه ، وستفتح لها الأحزان أبوابها على مصراعيها ، وهى امرأة قد قسا عليها الزمان فيما سبق ، فلا أقل من أن يترحم عليها فيما بقى من عمرها الضئيل

« امرأة هى من الفناء صورته ومن الوجود مثال عليه ، فهى تراكيب من عظام ، بينها أنسجة اللحم العديمة ، وتماسك الأعصاب المهزول وبذلك كانت تطبيقا عمليا لما يعمله الكبر فى الانسان « وإن أى ضعف تراه ، لابد أن يسكن شفافك ، ويؤثر فيها ، ويأخذ قسطا من تفكيرك فما بالك بالضعف النسوى إذا كانت هناك صلة بينك وبينه من جهة لأمومة وما لعب المرأة بالرجل حين يحبها وتسيطر عليه ، إلا من هنا

. . .

« تصور الفتى هذا كله ، ثم أطبق عليه جفن عينه الأولى ، وذهب بعيداً بعينه الثانية ، فتخيل انهزام جيش المسلمين ، وتصور أعلام الذل

تنشر فوق ربوع دولهم ، وتخفق فى انحاء دمشق ، البلدالعربى الأصيل فهاله ذلك الأمر حتى كاد ان يقطع سبيل خياله عليه ، ولـكنه تعمق فيه وذهب به أبعد من هـذا فاستعرض أمامه ما أعده الله للشهداء وما قرره لهم فى الدار الأخرى من نعيم مقيم ورضوان عظيم وفوز دائم بما لاعين رأته ولا أذن سمعته ولا خطر على قلب بشر فأخذته نشوة الفرح وقام وقد قرر فى نفسه امراً

. . .

« صور الحياة تعرض للانسان الحين والآخر . فمنها مالا ينظر اليه · احتقاراً له . وفى الوقت نفسه جهلا منه . ومنها ماينظر إليه بعض الشىء : لما فيه من فرح وحزن . ومنها مايرغمه على أن يتفكر ويتدبر . ويمحص ويدقق . ويرى السبل للخلاص أوالاشتراك : وهذا قسمان : مايترتب عليه الخير المحض : أو الشر المحض : فحينما تهم توابع الروح فى الجسم بأمر ما : وتصرف اليه جهدها : وتحول له سمعها وبصرها وقلبها . فهو من ناحية الأول : حتى عـــدّ لصوابه أجرأن ولخطئه أجر واحد : وعندما تتحرك بواعث النفس : وتثور عواملها على أى شىء . فهو من جهة الثانى . لأنه شر من شر إلى شر . وما أبرىء نفسى . إن النفس لأمّارة بالسوء إلا مارحم ربى : إن ربى غفور رحيم . ولما كان أمر الفتى من قبل روحه وتوابعها . وكرها

عن النفس وعواملها . اطمأن إلى ذلك وهدأ . وقال . لأنقذنه ولو تمثلت الحياة أسداً .

* * *

« وذهب إلى أمه . ليقص عليها قصته : فألفاها غارقة فى بحر لجى من الأفكار المظلمة : وسابحة فى حزن عميق عميق : لايعلم مداه إلا الله فأخذت الحيرة تخالج مكنون نفسه : ودفين أحشائه . والحيرة فى ذاتها ألم وقلق : فاجتمع ألمها وقلقها : إلى ألم نفسه وقلقها : وهى فى ذاتها أنين مرجّع . خفى حتى صار عدما . ولكن بعد أن استلب قوة الظهور . فاجتمع أنينها إلى أنين قلبه وشقائه . وهى اضطراب وتلجلج فاجتمع اضطرابها وتلجلجها . إلى اضطراب جوارحه وتلجاجها .

وإذا كان للحيرة لسان تعبر به : فلقد أصبح هو من الحيرة كلسانها وإذا كانت من الكائنات الحية التى لها ظل وخيال . فلقد صار هو ظلها وخيالها . لازمها ولازمته : حتى كأنه لافارقها ولا فارقته . ولكن عزمة الحق . وخنوع من حوله من الجبناء : وارتياحهم لهذا الضعف المهين . جعل كفة إيمانه وقوميته ترجح على الكفة الأخرى . فتشجع وقال . « أى أمّاه . الحياة واجب : والواجب يحتاج إلى تضحية . والتضحية تحتاج إلى التفانى . والتفانى يحتاج إلى الثبات . والثبات يحتاج إلى النظرة البعيدة . وها أنت يا أمّاه . تعلمين الوطأة التى حلت بنا :

والنازلة التى قصمت جيوشنا . والداهية الدهياء التى ألمت بنا ، وتعلمين أن هناك ثعالب ماكرة . وبطونا خاوية . تريد أكلنا . والانقضاض على يابسنا وأخضرنا فسلطت علينا هذه الفئة ، القليلة فى عددها ، والضئيلة فى ذاتها ، والسافلة فى طبائعها ، ولكنها الكثيرة بذهبها ، القوية بنفاقها ، السامية بدهائها

يا أمّاه ، وإن بلاداً كهذه البلاد لايستكثر الإنسان عليها دمه وعذابه ، وغربته ووحشته ، فإن من الشقاء مالا يكون الشفاء منه إلا بالشقاء نفسه ، ومن الآلام مالا يتوصل للقضاء عليها ، والخلاص منها ، إلا بها هى عينها

« لايخلو المرء من لحظات رهيبة تمر به ، وعقبات شديدة ، تقف فى سبيـــله ، فان تغلب عليها ، وتهاون بها ، نال بغيته ، ووصل إلى مايريد ، ونفذ إلى مايعتزم ، وإن جعل للتردد سلطانا عليه ، وتدخلا فى شؤونه ، هلك وأهلك ، وضل وأضل ، ومن هنا لمح القوة فى تعبير القرآن ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، وأيم الله إن لم يكن فى العزم إلا وضع العين بجوار الزاى بجوار الميم لكفى بيانا على عظمته ، وقوة خطره ، وشدة تأثيره ، وبيان فضله

ومن مادة الحياة أنها لاتدوم على حال ، ولا تسير على شاكلة واحدة ، فمن تقديم الى تأخير ، ومن سموّ إلى هوىّ ، ومن رجوع

إلى ثبات ، فمن سايرها وجاراها ، سايرته وجارته ، وإلا هزمته وفضحته

« وكانت المرأة على جانب من هذا كله ، وعواطف المرأة لينة لينة : ولكنها حين تحزم تكون شديدة شديدة ، وكأن هذه المرأة كانت حفيدة لأسماء بنت الزمن الأول ، فكانت قريبة منها فى روحها وثورتها ، وغضبتها فأرسلت إلى ابنها نظرة مملوءة بالرغبة فيه ، فخشيت أن تؤثر عليه ، فردتها مملوءة بالزهد فيه ، ثم قالت

« إبنى الوحيد ، اذهب إلى ربك ، وأتمم كلمتك ، وفّقك الله وسدّد رأيك ، وسيجمعنا الغيب البعيد ، وسيكون اجتماع سعيد ، ولعلك تذكر معى العذاب الشديد ، الذى توعد الله به من نكص على عقبيه ، والله لايخلف وعده ولا عيده ، ومن أصدق من الله قيلا

. . .

« رجولة الرجل شىء طبيعىّ فيه ، وشهامته من أوائل إسمه ، وعزمته من ديدنه وطبيعته ، فليس من الغريب أن تتمثل فيه ، وتبلغ أوجها فى دائرته ، وترفرف أجنحتها حوله ، ولذا كان من النهاية التى تعبر أولا ووسطاً ، كلمة ، أنا الرجل ، وإنما الغريب الحق أن يهملها ويرتاح لتخنثه ، ويرضى بأنوثته ، أما طبيعة المرأة ، فهى الحنان والعاطفة ، والميول الجارفة نحو ذلك ، والانغماس فى هواها ،

والخنوع لضعف الحياة فضلا عن قوتها ، ولذا كان من العجيب الحق أن تبرز امرأة فى الشجاعة ، وتثبت أمام الصدمات كهذه المرأة ، إنها كانت بوقفتها هذه خير مثال لثبات الجنان ، وكبت العاطفة ، والتغلب على حرقة اللوعة ، والمغالبة لجهاد الأسى ، وشبح الأحزان

إنها كانت خيراً من رجال كثيرين « فانعطف الشاب على يديها ، يقبلهما ويستعطفها ويستدعيها ، ثم ودعها ومضى ، وأرسلت فى عقبه دموعها الحائرات الوالهات ، اللاتى تمثلن ماعندها من كمد ومافى قلبها من نار ، ومابين أحشائها من حنين ،

. . .

« استبسل المجاهدون هنالك ، وشدوا أزرهم ، ونسوا كل شىء إلا الذى أمامهم وظهر صوت الضمير فى أشخاصهم ، ولا أدرى ، هل استعاروا من الشجاعة صلابتها وقوتها ، أم هم أعاروها ثباتهم وقوتهم ، فتمثلت فيهم ، فكان الواحد منهم كلا فى جزء ، ومجموعا فى فرد ، يطلب الموت ليبعد عن الموت ، ويريد الحياة ليفارق الحياة وانتهت الحرب بخيرها وشرها

. . .

« كان هذا الشاب من الذين أكلتهم الحرب بنارها ، وجعلتهم من وقودها ، والتهمتهم بين أسنانها ، ومزقتهم شر ممزق ، ليجمعهم الله خير اجتماع

« وتقرأ النبأ هذه المرأة التى صارت بعد فراق ولدها ، نائية عن الحياة كأنها لم تمسها نبضة من نبضاتها ، قريبة منها ، كأنها اشتمت نسمة من نسماتها ، وكان أعظم أمنية لديها هى أن تطلب من الله سبحانه ، أن يريحها من هـذه الآلام ، التى كانت من الكثافة شبحا ماثلا أمام عينيهما ، ومن الرقة هواء ساما يملأ قلبها ورئتيها

قابلت هذا النبأ بشىء من عاطفتها ، وشىء من عقلها ، فسكبت قطرات من دموعها ، ثم قالت ، العين تبكى والقلب يحزن والله يرحم

« رحمك الله يابنى لقد كنت بارا لو الديك سمحا فى احلامك مقتصدا فى ضحكك حقيقيا فى امنالك جادا فى كلامك فلتذهب ولك إن شاء الله مغفرة من الله ورحمة .!

. . .

« تلك صورة من صور الحياة لاطنحتها كثيبة ولا لمحتها اهتممت فلقد تبادلا الأمومة والبنوة حتى تكرر ذلك فأصبح من الشىء الهين البسيط وإنما لمحورها المؤلم وحقيقتها الرهيبة سطرت وابرزت إلى عالم الوجود .

القلب السليم

« لو سئلت : ما أعظم وصف للمؤمن الكامل : وأجمل نعت لبيانه : وأصدق صفة : تلصقها به : فقل . إنه القلب السليم . ولو أردت نعمى الحياتين . والرضوان الأكبر : والسعادة الخفة : فاعمل لتكون القلب السليم . ولو قصدت أن تخلد اسمك فى عالم الطهر والنبالة : وترتع فى سماء الخلود والكمال : وتصعد إلى ساعة العزة والمجد . فحقق فى نفسك معنى القلب السليم .

« إنه الترياق الذى إذا استمددته : مدك بروحه الفياضة : التى تجعلك بشرا لا كالبشر . وإنسانا لا كبنى الانسان . وإنه المعنى الذى إذا مثلته . اختطفك من جسما ينتك . وأسكنك وأنت على الأرض فى جنة الرحمن . وإنه الرحيق الذى إذا شربته . سرى فى جوارحك فانقلها عن الشر . وحبب إليها الخير : وكره عندها الكفر والفسوق والعصيان :

وإنه الذى سينقذك من أهوال المحشر : يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم

. . .

« عرف خطره نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : فقسم شريعته قسمين

إيمان وإسلام : وبين « لايتحقق معنى الاسلام ، ولا ينبل ، ولاتتم أو كانه ، حتى يؤسس بالايمان الذى هو طهارة القلوب ، وسلامتها من الشكوك والأوهام ، وقرر

« إذا صلح القلب صلح الجسد كله . وإذا فسد فسد الجسد كله »

« وأيم الله ، إنه حين تفوه بهذه الكلمة ، كانه أسر إلى الوجود لتعلم أنى استمددتها من الغيب البعيد ، وسيتفتح معناها كلما بعد الزمن ، وشط المزار ، واندرست الآثار

« معالم النبوة تأبى إلا أن تظهر فى كل شىء منها ، لتظهر أنها أخص خصائص المخلوقات ، وأكثرهم فوزا برعاية الله ، وعناية الحكيم الحميد

« أنظر إلى إشراق هذه الكلمة ، وفق بين معناها وحالات القرون التى توالت بعدها تر العجب العجاب ، ولو كشف لك عن حقيق مغزاها ، وعميق مقاصدها . لارتبكت ، ثم تصير بعد ذلك محاطا بالحجاب فان تكلمت لاتخرج إلا لب اللباب ، ولو صمت حار فى شأنك أولو الألباب

« وإذا كان هذا بالسالك ، فكيف بالنبيين ، ثم كيف بسيد المرسلين والأخلاء والأحباب.

. . .

« وتمثل هذا المعنى فى صحابته ، فكان الواحد منهم رمزا للسمو

وعلما للسعادة ، ووضوحا للروح وإشارة للكمال ، وتبيانا للهدى والفضيلة ، ورحمة وبشرى لنفسه وللمسلمين

« وتصور فى أشخاصهم ، فأخرجهم من دائرة الظلمات إلى دائرة النور ، النور الذى يخالج النفس ، فتحاكى روحها ، ويداخل الصدر فيمتلىء يقينا ، ويشع على الأعضاء فيلبسها السكينة والطمأنينة والوقار

« وارتسم فى أذهانهم ، فحول مجراها من الأفق المحدود ، إلى الأفق اللامحدود ، وامتد بها إلى ماوراء الفناء ، وأطلعها على ماهنالك من نعيم مقيم ، وسعادة لاتفنى ، وخلود مسطر ، فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر

« وتحقق فى أعينهم ، فكانت مملوءة بالسحر ، السحر الذى يجعل الناظر لايشبع ، والذى يبعث الرحمة فى أشعته ، ويحمل اللطف والرقة بين جوانحه

« ووضح لهم ، أن هذه الأشياء لن تنال بمجرد القول ، ولا بظاهر الحركات ، وإنما لابدلها من جهاد طويل ، ومشاق جسيمة ، وعناء فيه معنى العناء

فتقدموا فى ميدان الحياة على ضوء هذه الحقيقة ، وطبقوها على كل مايمر بهم من صور الحياة ، فان أرادت بطونهم طعاما ، مهلوها فاذا عضتهم هادنوها ، فاذا ضعفوا عن العمل انقطوا من اللقيمات

ما يجعلهم يواصلون . وإن طالبهم الجفن بحقه . تغافلوا عنه أولا . فإذا أقبلت عليهم جيوش النوم . أطاعوه . ولكن قليلا . وهجعوا ولكن ضئيلا . ثم تتجافى جنوبهم عن المضاجع . يدعون ربهم خوفا وطمعاً . ويبيتون لمولاهم سجداً وقياما .

ولو برقت لهم الدنيا بفتنتها . قالوا لها : إليك عنا ، لقد كرهناك الكره الذى لا مراء فيه . وبغضناك البغض الذى لا نستطيع نخفيه .

ولو راودتهم النفس عن مساوئها ، خطوا فى قرارتها . أنهم لن يخضعوا لها . ولن يجيبوا رغباتها . ولن يحققوا آمالها . ولن يسعدوها بحظوظها . لأنها تطمع فيهم الشيطان والأهواء . وهم من هذا كله براء ولأن سياستها لا يوافق عليها القلب السليم .

« حقا . ما أبعد الفرق بيننا وبين هؤلاء .

بشرٌ كأنهم الملائكة . ورجال كأنهم الشياطين . والكل مسلمون والجميع موحدون .

. . .

« حروف القدر أرادت أن ترسم شخصها بصورة واضحة جلية ليرتاب الذين فى قلوبهم مرض . ويزداد الذين آمنوا إيمانا . فجعلت من الولد غير أبيه . وجعلت من البنت غير أمها . ثم خلفت من الشىء صورتين يتغيران بحسب الرائى ووفق الناظر . ارجع إلى معنى القلب

السليم فى صدر الاسلام . وفى هذا الزمن .

ظلمات الشهوة أذهبت جلال الحق . وعمه الشك أبطل عزم اليقين وسلطان النفاق أخضع سلطان الصراحة . وعيون خيم عليها كابوس القذى ، وأذواق اعتلت من أصلها . فانهارت أشخاصها .

وهذه صورة مصغرة لأناس هذا الزمن .

فما أبعد الفرق بيننا وبين هؤلاء .

« وهل النفس وغرائزها إلا السوء انحصر فكانها . وإلا الرذيلة تكونت فلصقت بها ، وإلا الشر اجتمع . فاحتاج إلى من يمثله . فرضيته وإلا المعول الهدام فى شخص الإنسان . ورفعته وعلوه . ؟؟

« وهل القلب السليم . إلا ذلك القبس الإلهى . يتوسط جسمك ثم يرسل تياره على بقية جوارحك . ويرسم على كل جارحة صورته ويطبع عليها بطابعه الخاص ثم يوحى إليها .

ها أنذا قد نظفت . وصلحت لأن أحمل إليك رسالة الإسلام ، وأنفث فيك نوره وهدايته . وأنشر عليك آثاره وفضائله . وأحبب قوانينه ودساتيره وأغرس فى أعماقك شرفه ونبله ، وأقربك من معدنه النفيس . وجوهره الجميل .

« وما عليك إلا أن تنفذى كل ما أطلبه منك ، وتؤدى جميع ما أفرضه عليك ، من غير كلل ولا ملل ، وتسمع الجوارح فتستجيب

وتقبل نشوى طروبة بما يسديه إليها ، نشيطة فيما تبتغته منها ، راضية بالذى يود أن تقوم به ، ولسان حالها يقول له ، لاتبحث عن إصلاحى ولا تهتم بشأنه ، ولا تجهد نفسك فى التفكير فيه ، وإنما ابحث عن صلاح نفسك ، واهتم بشأنه ، وأطل من التفكير فيه ، فما أنا معك ، إلا كفم الزجاجة يظهر للوجود ما فيها . « إن خلا خلا . وإن عسلا »

. . .

« القلب السليم . وما أدراك ما القلب السليم . ؟

هو الدائرة اللانهائية ، التى لايسبح فيها ، إلا من خلص من شوائب الحياة ونقائصها واستوى عنده نعماؤها وبأساؤها ، وكان سيان لديه ، هفوات الناس وحسناتهم وثناؤهم وصمتهم ، وهو الجمال المقنع . لا ينكشف إلا للذى مرس المعانى كلها ، فطلق خسيسها ، واستمسك بعاليها ، وعرف فضل الطهارة فترك لنفسه العنان فى التخلق بها ، وسبر غور الفضيلة فارتشف من معينها ، وارتوى من سلافها ، حتى تحققت فى كل ما يأتى وما يذر ، وهو الحلقة الشمسية ، لا تنبثق إلا عند تبديد سواد الرذائل المنكرة ، ومحو ظلمات القبائح المستبشعة ، وهجران عوامل الفساد ، التى تورث الهوى إلى مدارك الانحطاط ،

« وهو الكلمة التى تقول لك : « ميزتك على غيرك سيطرتك عليه ولن يكمل فيك هـــذا المعنى حتى تكمل أنت ، ولن تكمل حتى

تكون القلب السليم » .

. . .

« لا شيء خير من الخير إلا ثوابه . ولا شيء أبهى من البهاء ؛ وأروع من الروعة إلا القلب السليم ، من كانه كان رحيما سمحا ، حميداً ، صادقا ، وتلك هى أعظم آثار البهاء .

. . .

« إذا ظهرت فى الانسان ظاهرته . وتمثلت فيه آياته ، واستطاع أن يغالب نفسه ؛ وهواه فى سبيله فقل عليه إنه ملاك تنزل من السماء وتصور بصورته وتمشى على الأرض .

لا ، بل ، فقل ، إنه الروح أرادت أن تبرز إلى الوجود ، فبرزت فى شخصيته ، وإنه الجمال ، عمد إلى أن يكون محسوساً يلمس ويحس ، فكان فى شكله ، وإنه العالم الذى قطن فى السماء ، ولم ينتقل بعد من جثته .

« وهكذا كان المسلمون الأولون ، فأخضعوا الدنيا على سعتها ، وملكوا النفوس على صعوبتها ، وكانوا أسطرا من النور : تضيء بقوتها . وتؤنس بإنارتها ، وتخيف العدو بمادتها ، زلزلوا الكرة الأرضية بأقدامهم ، وهزوا شوامخ الجبال بصولتهم ، وأوقفوا دولة الباطل عند حدها : وهزموها وأخمدوا صوتها .

ولها أن تحزن وأن تكتئب . ولها أن لاتحزن وأن لا تكتئب لأن هذه القوة وإن آلمتها وأبكتها . فليست بأول قوة آلمتها وأبكتها وإنما هى ككل قوة آلمتها وأبكتها . وعصفوا بما حولهم من الدول وطاروا بما كان فى زمنهم من تيجان . وجلعوا ما كان هنالك من ملوك . وفرّوا برءوس الكفر وجيوشه إلى مهاوى نيران . وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين . ثم قالوا للوجود . اصدع بماعندك وقابلنا بما تريد . فلقد علمنا القلب التسليم أن نقابل اللين والنعمة . مقابلتنا للخطوب والعذاب الشديد (١) .

رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . وإقام الصلاة . وإيتاء الزكاة . يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار . (ومن خاف سلم) .

كأنى بهم لو أطلوا علينا من شرفاتهم . فرأوا هذا الملك الضائع وتلكم القوة التى ذهبت أدراج الرياح . وذلكم الاستعمار الغاشم الذى فرض علينا نفسه . وأذل فينا نفوسنا . فتساوم أهله علينا . وتكالبوا على تمزيقنا . ونجحوا وفشلنا . وتقدموا وتأخرنا . وأنتجوا وأهملنا وخوفوا بعددهم وغررنا بعددناوصاروا المنفذين . وصرنا الثرثارين! لعلهم لم يسمعوا بذلك فى مضاجعهم . فأشق الشقاء . أن ينهار الشىء بعد أن تعمل فيه مئات السنين .

---

(١) أى لايبطرون بها ويأسون منها لمجرد رؤيتها . ولا يتأتى هذا إلا بالعنف والصبر .

إن القلب السليم حين يوجـــد . يجعل من نفس صاحبه نفساً لا محدودة . نفساً أعمق من البحر وأبعد من السماء وأغمض مما وراء هذا الأفق . أزلية أبدية عظيمة الشمائل والخصائص . هذا رجل يسلم قلبه فيريد الجيش الذى هو فيـــه أن يفتح مدينة من مدائن الكفر والضلال فيجدها محصنة على أشد مايكون التحصين مستبسلة رجالها على أعظم ماتكون البسالة . ثابتين على أبرع مايكون الثبات . فيقف الجيش حائراً مشدوها . ومع ذلك فأخذ الرجل يفكر ويقدر ويمحص ويدقق . فهداه فكره على أن ينقب حائط المدينة . ثم يقذف بنفسه فى داخلها ويعمل سيفه فيمن حول الباب من المشركين . ومهمايكن فى الأمر من خطر فادح . ومهما يكن فيه من خطب بالغ ومهمايكن فيه من جهد شديد . فلن يذهب بأكثر من موته . وما أرخص هـذا الشيء عنده وما أبخسه وأحقره . مادام فى نهايته فتح ونصر المسلمين

وهل الدنيا إلا صفحة للمؤمن . فيهـا حركاته وسكناته . وهل الموت إلا باب خلوده الأبدى فى النعيم الذى لايحـوم حوله فناء ولا شبه فناء .

ولـكنه ينقب ويخاطر ويفتح الحصن وينتصر المسلمون ، وهـو باق على قيد الحياة ، فماذا يجرى ، يبحث المسلمون وقائدهم عن ذلك البطل المغوار الذى فعل هذا الصنيع الجميل ، وقدم هـــذه الأعمال

الصعاب ، ولكنهم عبثاً يحاولون فالرجل قد سلم قلبه من حب الظهور والخضوع للثناء والمحمدة ؛ فيزداد إعجاب المسلمين وتقديرهم له حتى يجمع القائد جيشه ، ويقسم « ليظهرن هذا الرجل » فيرهب الموقف ويجل ، وإذا بصوت يشق عباب السكون السكون العميق ، ويملؤه الخشية والحياء

« إن أردتم شخصه فها أنذا ، وإن أردتم اسمه فهذا من المحال ، كل عجب له نهاية ، إلا عجبا يتصل بروعة الكمال ؛ فلن ينتهى لأنه منه

صِلْ نفسك بهذا الرجل ، واعرضه عليها ، ثم تلمس مواضع العظمة فى قصته تجد أنها تحاط بسياج حصين من التقدير له والإكبار لشخصه ، ثم تحاول أن تثنى عليه فتعجز ، فلا تجد مديحاً له إلا أنه صورة من القلب السليم

كأنه يلقى على الكون ، لاتنظر الى صغر حجمى ، وانما أنظر الى كثرة خطرى ، وعظم شأنى وتفهم معنى كلمة (قلب)

. . .

ان صاحب هذا القلب ، يكون معدما ويتعفف ، ويكون ضعيفاً ولكن الحديد يلين ولا يلين عزمه ، ويكون وحيداً ، وفى كل جزء من أجزائه قوة الجمع ، لأنه يكون كتلة من عواطف فياضة ، ومشاعر

ملتهبة ، وعقول مفكرة وبذلك يخلد اسمه فى عالم القداسة والنزاهه ، وفى ميدان العظمة الحقة ، والبطولة النادرة

هاك سعيد بن جبير ينظف قلبه من النفاق والجبن ، والسفه والمداراة ، فرأى من الحجّاج مايغضب قلبه الحى النبيل ، ويسىء ضميره اليقظ الحر ، فأعلن كراهيته له فى أذن الوجود ؛ وأرسل احتجاجاته فى فم الدنيا ، فيأتى به الحجّاج ، ويسأله ما اسمك ؟ سعيد ابن جبير ، فيقول له ، بل أنت شقى بن كسير ، اذهب به ياغلام ، وأرو الأرض من دمه ، ومزقه شر ممزق ، فيقف سعيد ساخراً من هذا كله ، هازئا بالأمر ومُصدِره ، ترتسم على ثغره ابتسامة عدم المبالاة وابتسامة سلامة القلب ، التى توحى اليه اطمئنانه الهادىء لهذا الموت ، ثم ينفرج هذا الثغر عن تلكم الكلمة التى تفسر كل ذلك (أصابت اذاً أمى اسمى) مشيراً الى حقارة هذه الحياة وتوابعها ورافعا الى أوج العلا ، التفانى فى سبيل راحة القلب ، واستقرار الضمير ، اذ أن وراء ذلك عالم الخلود ، وعالم السعادة ، وعالم المجد والحياة فى جنات تجرى من تحتها الأنهار . يتلوه رضوان الله ورضوان الله خير للذين آمنو وعلى ربهم يتوكلون

. . .

لو علم قيمته أصحاب الجاه والثراء لطلقوا كل ذلك فى سبيل أن

يتصفوا بهذا المعنى ويصلوا الى لذته ، وينشر عليهم من نوره ويظللهم بأجنحته ، استمع قول وجل من أصحابه ، والله اننا فى لذة ، لو علمها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف

سلامته لا تكون الا اذا نزع كل غلّ ، وذهبت كل ضغينة ومُحق كل أذى ، وقُضى على كل عداوة ويعلم الله الذى لا اله الا هو ، أن الإنسان لو خلا من هذه لأصبح الرجل الذى يستحى الهمّ أن يقبل عليه ، ويستحى الشقاء أن يقدم منه ويستحى اليأس أن يتسرب اليه

. . .

« الشخص بدونه علامة استفهام فى الوجود ومصدر حيرة لجميع عارفيه وصورة للاستهزاء فى كل وقت تلعب به الأقدار وتصرفه الأيام ويكون ليلا من غير قمر او نهارا من غير شمس او امة من من غير قائد فياحسرتاه ان اعتزم أمرا ويا سواتاه ان نفذه

. . .

« ألا إن القلب السليم ، إذا تمكن فى قراره ، كان الماء الذى يخصب الأرض وينبت الحب ويرويه حتى يترعرع ويخضر ، ويثمر فتأكل منه الناس وتنتفع به الناس ، وكان النار التى تذيب الذهب ، فتخرجه نقياً ممحصاً جميلا ، والمغناطيس الذى يجذب الشخص إلى السمو ، حتى يجعله نجما فى السماء ، ثم ملكا من ملائكتها ثم علما من أعلام

جنتها ، ويكون بذلك كله ، نتيجة القلب السليم ؛

« وما الإسلام بأصوله وفروعه ؛ وواجباته ومندوباته ، الا نداء صارخ لصلاح القلب ؛ وكأنه يناذينا ، حين أرسلت إلى الوجود قيل لى ؛ أنت قوى الشوكة ؛ عظيم المهابة ، جليل القدر ، ما صلحت القلوب ! وأنت مهمل معطل ؛ حسير الطرف ، كسير الفؤاد ، ما فسدت القلوب !

« ومن هنا نعلم لم تأخر المسلمون ، وانحطوا الى السيئات ، ورسبوا الى سبع أراضيها ، ولن ينقذوا ، الا اذا جددوا العوامل ، وسلكوا ما سلكه الأولون

« لقد أصبح اليوم همهم المظاهر وخداعها ؛ وأسلوبهم النفاق ودهاؤه ، ومعاملتهم الدسائس وأنواعها ، وعمادهم الرياء وأكاذيبه ، وحياتهم الفتن والاضطرابات ؛ وسياستهم المكائد والكراهية

وتولد من هذا كله ، تفرق فى الكلمة ؛ واضمحلال فى الرأى ؛ وخور فى العزيمة وسفه فى الأخلاق ؛ ثم ضياعهم وسط الفيافى حيارى لا شوكة لهم ؛ ولا راية تجمعهم ، ولا طريق تلمهم ؛ وما كنا مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون .

. . .

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق

ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ، فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون .

« ياقوم .

انزعو اهواءكم الضاله من اجسادكم وانبذ والخبائث من قلوبكم وتخلقوا بأخلاق السماء واعرجو بأنفسكم نلى عالم الكمال

حرام عليكم ان تميتوا ضمائركم فى ريعان شبابها وان تجعلوا عواطفكم النبيلة تفنى قبل ان توجد

انكم أن حافظتم على ذلك كنتم القلب سليم .

السائحة الحائرة

هى قطعة من السماء . فيها رقتها وصفاؤها ، وفيها سموها وجباؤها وفيها معان كأنها نجومها : وفيها قوة كأنها قانونها : وفيها ضياء كأنه ثغرها وفيها بهاء كأنه بدرها .

نزلت إلى الأرض لا يأمرها : وشعت على الوجوه : من غير إذنها . وما تدرى إلا وهى فى الجو سائرة . وما تشعر إلا وهى على الأرض حائرة .

فأرادت الرجوع . فلم تساعدها المقادير : ونوت الإياب . فلم تسعفها المعاذير . وهل ينزل من السماء إلا الفضيلة ؟ وهل يصعد(١) من الأرض إلا الرذيلة . فهيهات طلبتها . لأنها نفس المستحيل . ولتقنع بما هى فيه . لأنه أمر الله الجليل :

وبعين هذا نفذ المستطر : رضيت أم أبت : بجوار البشر : إنا كل شىء خلقناه بقدر : وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر .

وأنزلت الفضيلة من سمائها : كما أنزلت حواء من جنتها : وإن كانت الفضيلة لم تهف كهفوتها : وإن كانت حواء لم تصبح كبشرتها .

---

(١) أما قوله تعالى إليه يصعد الكلم الطيب ، فهذا بعد نزول الفضيلة .

ولكنهما نفذا الحكم اللبرم : وطبقا دستور الإله المحكم .

وهل الفضيلة إلا سماحة باختيار : وهل حواء إلا جنة ونار .

اجتمعنا فمزجتا : فكانتا المرأة : وأتتهما النفس ثالثة . فجرت فيهما . فكانت الخطأة(١) . « فسبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض . ومن أنفسهم . ومما لا يعملون . »

« وسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء واليه ترجعون »

وفارقت الفضيلة حواء . بعد أن تركت آثارها معها . وبعد أن بينت لها . أنها لم تفارقها بغضا لها . ولازهداً فيها . وإنما لتأخذ فكرة عن بقية العالم ، وتستطلع خباياه وأسراره . وتلقى فى فضائه اليقظة والحرارة . وتبذر فيه حبها ونباتها : وترسم عليه حدائقها وجناتها . وتفرغ فيه بهجتها ورونقها . ثم لتخط على صفحته . « من اتبعنى . فانه منى . ومن عصانى فانك غفور رحيم »

رساحت الفضيلة سيحتها . حتى تقابلت مع أخويها الغريبين الحائرين تعانقوا تعانق الأخوة . وتصافحوا تصافحها . ولكن لأمر ما . كانت هى أكثر استقبالا لهما وأعظم إقبالا عليهما . وأشد شغفا بهما .

ثم طلبت حواء يوما أن تحدثها الفضيلة بشىء من عندها . فقالت حينما انحدرت من عالمى لم يخفف من وطأتى بعض الشىء . الا أنى

---

(١) أى زلتها فى الجنة .

سأرى عالما جديداً وخلقا جديداً وسأكون سببا فى سعادة من يتصل بى ويعمل بشريعتى ودساتيرى وهنا تحركت حواء وقالت دلينا دلينا، ماهذه الدساتير ، وما هـذه الشرائع فقالت لها إنها كلها فيك ولـكن لاتشعرين ، اليس إذا غاب زوجك تحسين بنقص رسالتك اذا لم تحافظى على غيبه حفظك على مشهده وإذا لم تـكلفى نفسك مشقة وصاله ، والاجتماع به

ثم أليس إذا حاولت نفسك ارتـكاب منقصة أو كبيرة احسست بقشعريرة فى جسمك وانتفاضة فى جوارحك ووخزة فى قلبك وحركة فى ضميرك ، ثم أليس إذا رأيت أو سمعت ما يؤذيك ، أحببت أن تجهدى نفسك فى إزالة ما أغضبك ، لـكى لايثير غضب غيرك

ثم أليس إذا وصل إليك أن أحدا عمل خيراً ، أوصنع جميلا ، شعرت بميل إليه ، وتقدير لفعله ، واكباراً لجميله

ثم أليس اذا وقعت منك هفوة أو صغيرة ، اشمأززت رتألمت حتى تضيق الأرض بما رحبت عليك ، ثم تندمين وتستغفرين

فأنا بعينى التى أحدث فيك كل ذلك ، ولولاى لما قدس الناس الحسن ، ولما تباعدوا أو أظهروا التباعد عن القبيح

وأنا بعينى التى أجعل المادة تصغر فى عين من عرفنى ، وأقلل من شأن الشهوات الزائلة فى نفسه ، فان كان حاكما عدل ، وان كان تاجرا .

أو صانعا صدق وأوفى وأنا بعينى التى أحفظ على الإنسان انسانيته العالية ، ولا آدعه يتخبط فى محيط غير محيطها وأنا بعينى الحصن المنيع لأهلى أزود عنهم وأحمى حماهم ، من ذخل تحت كنفى ، أمن جهل الجاهلين ، وجنبته عثرات الحمق : وصنت له العقل والرشد ، والسمع والبصر ، فهو بى لا يضل عن الجاده ، ولا يزيغ عن الصراط السوى

من كنته فهو الرجل الفاضل ، وحسبه بهذا اسما ، ومن لم أكنه فهو التافه الحقير ، ولو امتلات خزائنه بالذهب والدنانير ، أنا بعينى ، الباقة الجميلة لأزهار السجايا والخلق ، واذا أطلق الواحد من لفظى كان مجمع الفضائل كلها

وكأن حواء طربت لهذا الحديث الأخاذ ، فراحت تقبل الفضيلة وتستحلفها أن تحنو على أبنائها ، وتشملهم برعايتها

فقالت لها ، ياحواء ، لتعلمى أيتها « الفاضلة » وأنا معك الآن أننى ، أقطع العهد والميثاق ، لأكتنفن بالدعاية والصيانة ، كل من طلبنى من أبناؤك ، ولأخصنهم بخصائصى ، فما تنزلت من سمائى إلا لهم

ولكل منهم عندى حظوظه ولكن بقدر ماعرفنى وتمسك بمعانى ماعرف فللرسول درجته ، وللنبى منزلته وللعالم العامل قيمته

فالناس عندى منازل ، ولكل بقدر ما عقل .

. . .

ما أجمل الإنسان ينظر إلى أصله . فيجده من حمأة مسنون ، فيستشعر نقصه . ويصغر أمام نفسه . فيبدأ تكميل طنيته بخلقه ويحاول سترها بطهره . فهو من نفسه خجول . حتى يتم مابدأ فعليه أن يحتمل ويحتمل ليسمو بأرضيته إلى عالم روحه .

ويخاطب الكون . لئن كنت من تراب ، وهذا هو الأمر الذى لا أستطيع له رداً ، فإن بقيتى من خلق وروح . والخلق إذا امتزجت بالروح كانا فى كنف الفضيلة . ورعية من رعاياها . والفضيلة من السماء نازلة . وانا بها صاعد اليها . فلترحل عن النفس وساوس طينها وترابها .

وما أبدعه يعمد الى نفسه . فيجعلها مرآته ينظر فيها بالعين الصادقة فيكشف قناع نفسه بنفسه . ويهتك عنها لباس الخداع . ورداء التضليل ولا يتركها حتى يضايقها نفتيشا وتنقيبا . فان ألفاها قبيحة . استحيا من منظرها . وان رآها عير ذلك استحيا وخجل . أن يشوه جمال حسنها بقبح . وان يفرط فى روعتها . وان يطعن فى رونقها وبهائها بنقص .

ويعمد إلى روحه : فيشع نورها على ضميره ووجدانه : ويسكبه على مشاعره وأحاسيسه : ويفيض من سموها على تصرفاته وأفكاره وأعماله وأقواله : ويعمد إلى عقله فيقول له لاتبرح حدودك : ولا .

تتعد مقامك : ولا تخن رسالتك : ولا تلزم الشطط فى جولاتك ولتحسن القيادة . حتى تستحق السيادة . ولتعلم أن مسئوليتك خطيرة وليست بالهينة اليسيرة فأنت إذا طغيت : ضللت وأضللت : وفسدت وأفسدت : وإذا عجزت هلكت وأهلكت : وتعطلت وعطلت : واذا توسطت . اهتديت وهديت : ونجوت فنجيت

ويعمد إلى العاطفة : فيسلم قيادها للعقل . ويحكم زمامها . ويفعمها رغبة فى الخير : وحبا فى الرفعة والسمو .

ويعمد إلى قلبه . فينبهه وإن كان غير نائم . ويوقظه وإن كان غير حالم . ويغرس فى صميمه شجرة الايمان . ثم يلقى عليه . أيها القلب . كن القلب الساكن الثابت . الذى لا يهمه ثرثرة اللسان . ولا ترهبه ضخامة التهديد . ولا يثنيه عن عقيدته شيء .

كن القلب الرهيب . الذى آمن بخصائصه وعجائبه . فخرق العادة وحطم قوانين الطبيعة .

ألا إنه ليست فى القوى التى سخرها أساطين العلماء والمخترعين قوة تماثل قوة القلب الحى . والضمير الأبى .

* * *

إن الانسان حين يكون كذلك . يسيطر عليك سيطرته . فتعلق به ولا يزيدك القرب منه إلا تشبثا فى صحبته وتتصفحه . فتجده

سطورا من الحقائق المبهجة . وكلمات من المعانى العالية الرفيعة. وتنظر إليه . فتبصر سحر الإيمان فى عينيه . وصورته مرتسمة فى جبينه وحلاوته ملفوظة فى لسانه . وسكينته تفيض فى حركاته . فلا يسعك إلا أن تقر معى . بأن هذا هو الفخر كله . وهو الخير كله : وهو العز كله : لأنه الفضيلة بعينها .

أجل : ما أحلى الرجل إذ يكون الفضيلة : وتكونه الفضيلة : انها وحى والهام . وان الطبيعة صمت وكلام . وكأنها اذ ابتدأت بالألف وتوسطت بالياء . تقول للطبيعة . أنا أنت وزيادة .

* * *

يامثال الفضيلة فى السماء . إنك حين تشرق تدمج ما حولك من النجوم فى هالتك . ولا تبقى من الظلمة شيئاً يحيط بك : وتظل تضىء وتضىء : حتى لا يبقى فى الآفاق ظلام الا أزلته وبددته . فما للفضيلة فى الأرض . تطلع وتنير ويلمع ضياؤها فى الانسان من حين الى حين . ولكنها لا تخفى ما يحيط بها من الرذائل . ؟ ! ذلك لأنها رأتها ليست أهلا لها . ثم نظرت اليك فأودعتك روحها . فاكتسبت ما اكتسبت من طهارة ونبل . فأنت بها تعمل . أما هى فقد بقيت فينا من غير روح : مادة مركبة من مادة أو جسما مكونا من ضلوع : ولذا فإن أهلها يجدون فى النظر الى القمر لذتهم .

* * *

إنها لزورى . فما أحوجها إلى من يزيل غصتها . وإنها لمشرفة على الغرق . فما أحوجها إلى كريم أبى النفس ينقذها . وإنها السائحة الحائرة فما أحوجها إلى من يعرف فى قلبه معانى رغبتها فيهديها السبيل السوى والطريق المستقيم .

ألا ما أقسى الكون على الفضيلة . وما أحوجها للرثاء . نزلت مشرقة الوجه باسمة الثغر . طلقة مطلقة : فأصبحت اليائسة المسكينة المغللة الموصدة ، وتدلت وهى تظلل الفضاء فصارت نقطة فى محيطه وعاملت الأرض بأخلاقها : فقابلتها الأرض بترابها . وقالت لها لاتنتظرى منى غير هذا .

وقدمت للانسان أياديها البيض . فإذا هو معها . كشأنه مع ربه خصيم مبين .

مابعث الأنبياء ولا المرسلون : إلا لتدعيم أركانها . وتأسيس بنيانها . وإظهار معانيها . ومن نظر فدقق : وبحث فأمعن ، لوجد أن جميع رسائل الأنبياء تنطق وتقول ، ما الإنسان إلا فكرة . وما الفكرة إلا إلهام : وما الإلهام إلا يقظة الضمير . ومايقظة الضمير إلا صبغة الله . وما صبغة الله الا الجلال الكلى : ينبعث فى المرء : فيصقل مافيه من المعانى الخسيسة . ويجعله اللطيف النقى الطاهر الجميل

* * *

ليس الغريب فى هـذه الحياة رجلا ينتقل من مكان الى مكان . ولا رجلا يتلمس فتات الناس . وبقيا طعامهم . ولاسهما طاش : ففارق حدود بندقيته . وانما الغريب الحق : الشجاعة عند الجبناء . والبذل عند البخلاء . والحياء عنـد الوضيعات من النساء . والفضيلة عند جمع هؤلاء .

***

ياقوم : لوشاب جنين فى بطن أمه : أو جنّ طفل قبل وعيه : لايكون عجبـه شيئاً : بالنسبة للعجب من ايذاء الفضيلة لأنها فضيلة فيا أيتها السائحة الخاطرة . رفقا بنفسك : فإن الذهب لاتنقصه غشاوته وان اللبن . لاتغيره رغوته . وان عظيم الدّرر لايهمه تعكير البحر ، ويا أصحاب النفوس الطيبة . لاتحسبوا أن ندوركم لسوء فيما اتصفتم به وانما هو القذى يطفو على العيون . فلا ترى الأشياء الا محجبة عن عن حقائقها . وياخبث الكون وزبده . لتعلم أنك بغيض بغيض . ومهما أظهرت الحسن وكثر أعوانك . وزاد أتباعك : فأصلك الظلمة وعاقبتك النـدامة .

السعادة وزوجها

السعادة وردة محاطة بأشواكها . خلاصتها مرح القلب . وبهجة الفؤاد : وأثرها ودليلها : ابتسام الثغور : وضحك العيون .

ولكن أتراح الحياة وآلامها : وأحزانها وهمومها : وشرورها وبلاءها لاتجعل هذه الوردة تشرق إلا أفلت . ولا تنير إلا خفتت . ولا تتلألأ إلا خبت . ولا تأرج إلا قطفت وقطعت .

وزوجها الهم : فهو خدنها وألفها : وبعلها المسيطر عليها . وبذلك كان قوة غلابة . لها قالب من الشؤم والكآبة . يصب فيه كل أسباب اللذة والهناءة : ثم يصهرها ويصوغها صياغة من جنسه : ويطبعها بطبائعه وبميزاته وخصائصه . وحينئذ تلد السعادة من زوجها صنوفا من البلاء والشقاء .

فهو صندوق شره . لايزيده كثرة الوارد عليه . الا شراهة وطمعا وهو الحيوان المبطان . لايدخل بيت زوجته الا ليقلب كيانها . ويأكل ماوقعت عليه عيناه من طعامها ومتاعها . ومتى أكل شيئاً أخمه . ثم يهضمه ويهضمه . حتى يجعله معنى من معانيه .

« أجل . انه الكابوس اذا خيم لف الأرض والسماء وما بينهما

فى حلقة أضيق من سم الخياط . ومثل الانسان فى دائرته كمثل الفكرة احتبست فى لسان الأخرس . بعد أن شعت فى عقله وارتسمت فى ذهنه . ثم انحدرت لتهيأ للتعبير . ولكن أنى لها وكيف .؟

« وحينما يغمرا لهم انسانه . يفرض عليه سلطانه . كما يسيطر النعاس على جفن طال سهده . والحب على قلب فطرى طبيعى . وكما سيطر البحر على مافيه من الأسماك الصغيرة . فلا هى تستطيع أن تسير فى أسرابها . ولاهى قادرة على الخروج منه .

ذلك هو سلطان الهم . والغريب الغريب أنه لابد منه . لأنه ضرورى الوجود . كما أن النار ضرورية الآخرة .

* * *

العاطفة والحساسية والشعور . ثالوث مركب فى الانسان . سكب فى جسمه . واختلط به حتى اندمج . ورق فى لطافته حتى امتزج . وبالغ حتى شف وانتسج . ولو سألته . ماذا تحب . ؟ لأجابك بصمته وكلمك بهمسه . فجوابه فى العيون معناه . وهو فى لفتها همس . وهو تفسير للخوف والفزع والاضطراب . مخافة أن يسمع به ذلك الطاغية الجبار فيرسل جنده فى طلبه . ويجد فى الأقبال عليه . فتجمد العاطفة وتألم الحساسية . ويمرض الشعور . ومن هنا كان الإنسان مكبلا بأغلاله . ومقيداً بقيوده . وفزعا منه فى كل وقت . يخاف من شبحه فى كل حين .

وهل فى الدنيا خير محض : أو شر محض وهل كان البؤس مختتما بالسين الا لتصلح لبدء سعادة، وهل توسطت الميم الأمل الا لتكون نهاية الألم هكذا نظام الحياة . ودستور الطبيعة : يأبى أن تعرف الأشياء الا بأضدادها ، فلولا الشقاء ماكانت سعادة ، ولولا الليل ماكان النهار ، ولولا الظمأ ما احتاج الناس الى الرى ، ولولا الظلمة ماكان للنور بهاء ، ولو السعادة ماكان زوجها

* * *

من معانى زوجها وبؤسه . وقسوته وفظاعته . ومن ضعة ذويه وذلهم . وصغارهم وهوانهم . تلتمس عظمتها . ويشع ضوؤها ويظهر فضلها . وينبل معناها . وترتفع قيمتها : وتعلو منزلتها ويحلو ذكرها : ويعشق اسمها : وتلذ حقيقتها : كالشمس تعرف قيمتها كلما جن الظلام وكالعقل يشعر الإنسان بوجوده وفائدته عندما يرى حركات السكارى والمجانين . أما أنت أيها الهم فبؤسا لهائك وميمك منك: وبؤسا لك من هائك وميمك : فلقد خالفت الحدود المرسومة لك : وتعديت الحقوق وأهلها : وتكبرت على أعز عزيز . وأعظم عظيم .

« نظام أمك(١) الوداعة والهدوء . والإنتاج النافع الساكن

---

(١) الطبيعة

ولكن نظامك أنت القلق والاضطراب . وبلبلة الأفكار والتردد فى تافه الأمور وفاسدها .

« منك اشتقت القسوة . وعنك نشأت اللهفة . واليك ينتهى وصف اللوعة : وفيك مبعث الشر كله : وأبيت الا أن تشارك الوجود فى كل أفعاله : وفى حركاته وسكناته : فوق الجبال تكون : وفى أعماق البحار توجد : جعلت نفسك فى عواصف الرياح : وعلقتها تحت سقف السماء : ومددت يديك فسددت المشرق والمغرب : وحاولت أن تتوارى وتكمن فى لؤلؤة رابعة(١) السماوات فبدت منك أجنحتك تهيم من فوق الأرض لاتجد لها مكانا يسعها : فملأت بسوادها الفضاء . فقبحا لك من عاق فاجر : فقد وضعت نفسك فى هذا الموضع الشاهق : لترى وتشاهد كيف تنقبض منك النفوس، وكيف ترتعد منك الفرائص وكيف تهلع منك القلوب ، وتضطرب المشاعر ، بل وكيف تخشى أنت من نفسك فتتوارى خلف الشمس

* * *

شاء الله فى سابق الأزل ، وقضى فى مكنون غيبه وعلمه ان يجرى الهم فى مجرى قانون النشوء ، وان يسير فى مسير دستور الارتقاء

---

(١) المراد بها الشمس وفى كسوفها فى بعض الأحايين صورة لسيطرة الهم حين يكون .

ها هو يعلق بالملائكة الأطهار ، ويحتل مكانه فيهم ، وينقل عليهم بعض اللحظات ، حين أخبرهم العلى القدير بأنه سيوجد فى الأرض خليفة . وهاهو يعلق بهذا الخليفة الكريم عليه الصلاة والسلام . عندما يرى نفسه وحيداً فى جنته . وهاهو يعلق بضلع(١) من أضلع الخليفة عندما يريد الله تنفيذ قدر التفريق . فتفرق بينهما يد القدر . وتضرب الحياة عليهما ضريبة الخوف والحذر . وها هو يرتسم فى ذهن ذريته . ويتغلغل فى أجسامهم . ويجرى مع الدم فى عروقهم . فيخرج منهم ظهوراً مقوسة . وأجساما نحيلة . وقلوبا هزيلة . وأعينا سقيمة ونفوساً حزينة . وعزائم خوارة . وإرادات ضعيفة . لاتستطيع إخراج ما أرادته إلى حيز الوجود . ثم تجمع هذه الأنقاض البالية بمعانيها الرديئة . ويصور من هذا الحطام الفانى « أشخاصاً » يعدونهم من الأحياء وهم إلى الموت أقرب . من رآهم كان عليه أن يكتئب ويحزن ومن نظرهم كان عليه أن يطهر عينيه بالدمع منهم . فهم أولى بالرثاء من أن ينظر اليهم . وهم أحوج للنظر من أن يرثى عليهم . وبذلك كانوا التمثال الحى للشقاء ، والتمثال الجامد للسعادة

مجموع كلمتى سعادة وهم . هو بعينه . مجموع كلمتى سماء وأرض : ولكن أربعة السماء اقترنت بأربعة السعادة . ولم تترك لنا إلا حرفا

---

(١) هو حواء .

واحداً : وكأنها تقول لنا ، يا أهل الأرض ، لما فيكم من ظلمات البغض والأنانية . وآثام العداوة والبغضاء ، ومنكر الظلم والشحناء لما فيكم من الإغراق فى حب الذات وتقديسها ، والانغماس فى التوافه والترهات ، والتنازع على ضئيل الماديات ، لما فيكم من الحيوانية الحقيرة ، والبعد عن الإنسانية العليا ، والتنزل عن درجاتها ، ولما فيكم من صفات وضيعة ، لايحصيها العد . ولا يحيط بها الحد ، لاتصلحون أن تكونوا مأوى للسعادة ، ولا تستحقون أن تكون ظلاً لكم ، ولا يليق أن تكون سلاما لقلوبكم : ولا يجدر أن تكون طمأنينة لنفوسكم . فيا أسفاه يا أسفاه

أيتها السعادة ، أأنت فى الجهة المسيطرة على الروح ؟ أم أنت فى الجهة المتصلة بالقلب ؟ أم اختبأت عنا ، ضنا بذاتك : وترفعاً عن طالبيك . . ؟

مهما تختبئين فستظهرين : ومهما تحاولين فسيكشفك العقل الانسانى فسبحان الذى خلق ونظم ، وسبحان الذى علم الإنسان مالم يعلم

مدرسة المروءة

« هى مدرسة : لاشهادة فيها : لأن أول أركانها أن لا يعمل الانسان إلا لذاتها وفصولها غير مجسمة : لأنها كل خلق حميد . وهى معانيها . وكل إنسانها ناظرها(١) . فلا فرق عندها بين أفرادها .

« ومن قوانينها : لايدخلها إلا كل شغوف بها : فاذا دخلها : خرج منها الرجل الذى يشار إليه بالبنان : والعظيم الذى يكون ملتقى القلوب والآمال : والساحر القدير لكل من حوله من الرجال : والمسيطر بعمله وفعله : على ماعداهما من الأعمال والفعال .

« ومن الناس من لايحسن الفرق بين الانسانية والحيوانية : فلا تجده إلا ممثلا لصورة الجمود الذى آخر حروفه النطق : والحى الذى منتهى الدليل على حياته حركته : ولم يكتسب إنسانيته إلا لأنه لم يأكل الأب(٢) الذى جعله الله من قسم الحيوان .

« ومن الناس من يجيد التفكير . ويبدع التدبير : ولكنه جعل من شروط إبداعه قصره على دائرته . وحده فى محيطه . وانتهاءه

---

(١) ليس المراد ناظر العين . وإنما رئيس المدرسة : والمعنى أن أشخاص المروءة لافرق بينهم فى المظاهر . وإنما فى المعانى .

(٢) أقرأ قوله تعالى . وفاكهة وأبا : متاعا لكم ولانعامكم .

بانتهاء منافع ذاته . وسوى ذلك عنده : تضحية لاقيمة لها : أو عناء لاطائل تحته . فيعيش مع الناس : وهو ناء عنهم : يأخذ منهم كفايته ويقصر عنهم خيره : ويشاطرهم فى نعمائهم . ويهجرهم فى بأسائهم . ويواسيهم فى رخائهم : ويشمت بهم فى شدتهم . ويظهر لهم الحلاوة فى لسانه : ويبطن لهم السم تحت نابه .

« والأقل القليل من الناس ، يعتقد أنه لم يوجد لشخصه : ولم يخلق لذاته . فيبحث فى معنى الانسانية : فوجده السلسلة التى تربط الغير بالغير : وتوصل الطرف الأول بالطرف الأخير .

« ووجده السماء التى نجومها بنو الانسان . ففهم أن الناس كلهم سواء : مثلما نرى نحن أن النجوم كلها سواء(١)

وعرف أنه الشعاع الذى لايكمل إلا باجتماع ذراته . فاذا انقطع منه بعضها كان التأثير بقدر ما قطع . « فاستخلص من هذا كله . أن الحياة الحقة : هى الفناء : ليبقى الناس . والشقاء ليسعدوا . والألم ليرتاحوا ، والأنكار ليظهروا . فيكون كالمصباح . يحرق نفسه . ليمد الناس بأنارته وضيائه . وكالشمس : لاتتغير عن مبادئها : ولاتبطن من منفعتها : وإن جحدها الناس . وتركوها وأهملوها . فحسبها الجميل لذات الجميل « وهؤلاء هم أصحاب المروءة . الذين شغفوا بها . فالتحقوا

---

(١) هلذا يحكم الغالب . وإلا ففى النجوم ماهو أزهى من غيره .

بمدرستها ، فصاغتهم أشخاصها . وصقلتهم بمحاسنها . وصهرت مافيهم من معانى الخساسة والدناة . ثم رفعتهم إلى سمائها .

« سماء الأخلاص الذى لايشوبه رياء . وسماء الفضيلة التى لاتنبت الا الفضيلة . وسماء العزة التى لاتعرف الدهان . وسماء الكرامة التى لاتفهم إلا معناها . وقالت لهم .

« مادمتم ملتحقين بمدرستى . فلا تنزلوا من سمائى . ولتنظروا الى أهل الأرض . كما ينظر النجم من فلكه اليها . فاذا مر عليكم غبارها وعواصفها وأذاها . فردوا كل ذلك ردا جميلا . فان لم يبعد عنكم . فغضوا الطرف عنه . وحسبكم أنكم فى سماء . وهو صاعد اليكم من أرض .

« بدائع الكون تتلاقى فى عالمها . فتنبت مايسر ومايبهج . وتخرج الجمال من بينها كما يشرق السحر من شفتى المرأة ، وكما تنسل الخيلاء من حركة الغزال ، فهى بديعة تنبع من مثلها

وكذلك المروءة حينما تنبع من الانسان

« وعندما ينبثق شعاع الروح فى الجسم ، يعقل المرء ويفهم ويحسن ويشعر فاذا اجتمع هذا الشعاع الى شعاع الأخلاق الفضلى ، قوى تياره ، وزاد تأثيره ، فينبل العقل ، ويسمو الفهم ، وتكثر الحساسية ويرق الشعور ، وكذلك يكون الرجل ، حينما توجد فيه المروءة

« وقد ترى السماء ، حتى تراها كأنها مستحيية من نفسها ، ولا يسعك حينئذ الا أن تحكم بروعة منظرها ، ومن هنا ، كان جمال المرء عظيما أيما عظمة اذا استحيا من نفسه ، وفى هذه الحالة بالذات يكون مستحقا لأن يوصف بالمروءة

« جلت المروءة معنى يشع على قلب الانسان ، فيذهب غله وخبثه وتذيب حرارته مكره ودهاءه ، ويشرق على نفسه . فينفث فيها الشعور بنقصها لتكمله ، والحب للخير فتفعله ، والارتياح للمعروف فتتصف به ، ويغرس فيها القناعة لتفضلها على كل شىء ، وينسكب على عاطفته ، فيجعلها الحساسة إلى أبعد حد ، النبيلة الى أقصى درجات النبالة : الفياضة الى منتهى درجات الأفاضة

« ثم يقول للروح . « تعالى لنتحد . فنؤثر على ماظهر من الحركات ومابطن ويتمازجان . فلا تدرى . أترجع الجمال إلى الروح : أو المروءة

« فهما كمرأتين . كبرت إحداهما . وصغرت الأخرى . ثم وضعت الثانية أمام الأولى . فانعكس كل منهما فى الآخر . فالناظر إلى كليهما حينئذ . يشعر كأنها مرآة واحدة . وهنا روعته ودهشته . ومن هنا يعرف ، كيف انسكبت المروءة فى الروح ، فلو نظرهما ناظر لايستطيع أن يميز بينهما

إن المروءة لهى المرآة بمعنى جديد عجيب . ما ألفتْهُ الطبيعة ،

وما أدركه البشر ، فهى مرآة جديدة فى فعلها وسحرها ، جديدة فى قانونها وطبعها ، من اتخذها نبراسا ، صهرته فى بلورها : وأسكنته جوفها . وغسلته بخلاصة أشعتها : حتى يصفو ويخلص . فتطفو به على وجهها ، وتبرزه للناس صافياً شفافا ، فيكون أمامهم من الحنان والرقة بحيث يرون أنفسهم فيه ، ويعتقد كلٌ من جلسائه ، وإن كثروا : أنه منغمس فى ذاته : متغلغل فيها ، حتى إذا نطق بكلمة خال هو أنه بلحمه ودمه حرف من هذه الكلمة ، لأنها خرجت من بين شفتيه يا حسنها ياحسنها .

رحم الله ابن الخطاب ، يقبل عليه رجل فيحدثه بأنه يريد طلاق امرأته ، فيسأله عمر ، لأى شىء تطلقها : فيقول الرجل ، لأنى لا أحبها وتثور نفس عمر : فيقول إذا كانت كل البيوتات بنيت على الحب ، فإلى أين تذهب المروءة .

وما أعجبها من كلمة : تصور لنا الغرض الوحيد من هذه الكلمة

فهى تشرح لنا أن المروءة هى جهاد النفس . وصدها عما تسوله من السوء ، وهى الخلاصة التى لاتقبل زبداً . والصفوة التى لاتتحمل الرّغوة ، والجوهر الذى لا يحبّ أن يدنس ويلمس بأذى .

وهى المعانى التى إذا حرصت على تقديرها ، ضعفت أمامك وانزوت فى ذاتك . كما ينزوى البدر فى شعاع الشمس إذا أصبح صباحه . وإنها

أيضا لتصور أغراض ابن ادم : وضعفه أمام الهوى . واستسلامه لأساره وقيادته .

آه ثم آه لو عملت الألسن اليوم بما تنمشدق به فى كل آونة وتبرزه من ظاهر شفتيها . وترسله فى خادع أساليبها .

آه لو وفرت بعضاً من هذا القول : لتضاعف به جهود العمل : فيرى أشخاصها مقيمين لأسس الأخلاق الحميدة ، تاركين ادّعاءهم الباطل : أنهم آباء المروءة وأجدادها : والمحافظون على شرفها ومعناها ألا : وإن قوما تمسكوا بأهدابها: وجاهدوا فى تعليمها لهم السعداء حقاً : والأحياء حقا .

فإذا كانت زينة السماء نجومها . وزينة الحدائق أزهارها : وزينة الجمال روعته ، وزينة الحب متعته فان زينة الإنسان عقله ومروءته .

لعل نسيمها يجدد هبوبه : ولعل شذاها يعم دائرته : ولعل الناس يلتحقون بمدرستها : فيحيون شعورهم ، وينتقلون من عالم أرضهم الى عالم روحانيتهم .

إنها السموّ الخالص والخلق الرفيع : والقطرات المصفاة .

الزهرة المسيطرة

« لئن كان لآدم فضل على المرأة بأخراجها إلى عالم الوجود : فلقد كان للمرأة فضل عليه . إذ حببت هذا الوجود إليه . وجعلته أمامه جنات ونعيما . وعليه روحا وريحانا . وله برداً وسلاما . » فإذا تكلم الأدباء اليوم فى المرأة . ويمم الباحثون شطرها . وإذا أحبها الإنسان من شفافه . وصرف إليها بعض أفكاره . وإذا كان هم بعض الناس تحليل المرأة . وعواطف المرأة وغرائز المرأة . فلا عجب فى هذا كله لأنه . لا غريب أن يكلف الأبناء بما كلف به الأب : وأن يفرقوا فى حب ما اغرق فى حبه الأب .

« وإذا كان علماء اللغة أوجبوا ظهور الفتحة على الياء : وقالوا فى ذلك : لتتعادل خفتها مع ثقل الياء .

أفلا نأخذ من ذلك وجوب وجود المرأة : كى يتناسب مع ثقل الرجل وجفائه وغلظته . لينها وهدوءها ورحمتها ؟ .

* * *

« عجيبتها الأولى خضوعك لها : وعجيبتها الثانية : رضاؤك باستبدادها فيك : وثالث عجائبها : تحويل مادة هذا الرضا إلى معانى

الاضطرار والعجز والاستكانة . ومجموعها . حبك لها . ورغبتك فيها . وإلا فهى أمامك مطلق إنسانة .

« وكأنها إذ انشقت من الضلع : تريد أن تقول : امحو الفرق بينى وبين رجلى فهو من خالص اللفظ وأنا من خالص المعنى .

وكأنها إذ خرجت إلى عالم الوجود . تريد أن تقول :

« إما أن تعرفوا قيمتى . وأما أن أرجع الى مكانى ولا أبالى .

« وهل كبرياء المرأة وسطوتها : ونفوذها وأرادتها . وحدتها فى معاملتها إلا تقدير لهذا المعنى ؟؟ « وهل صبرها عند القطيعة . وتمنعها وقت الرغبة . وتعمقها فى هجرانها . إلا حاشية على هذا التقرير . ؟؟

« ما أبدع قدرة الله : تخرج الحى من الميت . وتخرج الميت من الحى : ولكن . ما أعجبها : تجعل المرأة تخلق من الرجل الحى والميت فى آن واحد : ولعلها حينئذ تقول « أيها الإنسان : إنك بعض الوجود : وإن اسمى مماثل لاسم ما يتصرف فى الوجود : ألا وهو القدرة الأزلية ومن هنا تغلبت عليك . فلا تحاول أن تعارض .

« كلمات من الجمال وروحانيته . تجسمت فكانت رقة الأنوثة وحنانها . وحروف من النار ولهيبها . تركبت . فصارت سخط المرأة وغضبها وأسلوب من التحطيم والهدم والعنف : تكون : فأصبح نظرة الجميله ودمعتها .

« ما أصعب الأقدار على مادة الرجل : لأن المرأة منها . وما أشد تأثير الجمال على عاطفته . لأنه أحد وسائلها : وما أمر تمزيق القطيعة للاحشاء . لأنه من توابعها .

* * *

« يا عجبا . اسم كأنه السحر : يبتلع فى جوفه حروف الرجل : حتى أنه ليفهم بأن هذه الحروف منتزعة له انتزاعا : ومخطوفة له اختطافا . ألا تراه حين يسمع اسم المرأة : يحس له فى أذنه صدى : وفى عقله رنة : وفى قلبه ترنما حميلا : أين من ذلك كله اسم الرجل . فهى ترهب وترهب . كان بينها وبين المقادير رابطة . وتؤثر وتؤثر : كان بينها وبين الغرابة فى الطبيعة صداقة ، وتسكوى صاحبها . كانها من الألم انتزعت : ومن اللهيب أخرجت . ومن السعير نبتت .

« فى رحمتها نفس العذاب . وفى إقبالها عين الضباب ، لأنه للذتهما وارتياح الموء لهما . يشعر كأنه انتقل من عالم إلى عالم . وكل إنسان طموح جموح : فهو يريد التزيد ليرقى : ويريد الرقى ليتمتع ، وهنا تحد رغبته . وتتحرق عواطفه . فتأبى هى وتتمنع . وتتدلل وتغرى وهنا أيضاً تنتج الحسرة الكاملة . ويتقابل الجسم فجأة بعوامل مضادة فتخمد حركاته : ويبأس تفكيره : وتجمد حساسيته .

* * *

« غلظة ورقة . حين تجمعتا . سيطرت غلظة الغلظة . على رقة الرقة فقالتا فيما بينهما . حين تكون الرقة لامانع أن تكون الغلظة .

وإذا وجدت الغلظة لاجائز أن تكون الرقة . أنظر إلى المرأة فى حالتى دلالها وغضبها . . لايسعك إلا أن تهاب كيف تفكر . وإلا الحيرة فيما ترى وتدبر .

« حقا إنها من الأعاجيب . حيث سارت أو حلت . ومن الرغبة حيث وجدت أو نظرت . ومن الرهبة حيث حبت أو عشقت . . فلا تسألها إن تعدت أوجنت . بأى ذنب عذبت أو قتلت . فما تكلفت هذا إذ قدمت . وإنما هو من طبيعتها حين خلقت وخرجت .

. . .

« لوزدت واو اعلى اسمها . كانت مروءة . ولذا فهى جميلة جمالها سامية سموها . مصقولة صقلها . إلا إذا غمزت كبرياءها بشىء . ولمست احساسها بنقص . عندئذ تغيب عنك غيابها . وتنزوى فى واوها وتذهب ذهابها . وتتركك تتقلب حنقا وسخطا . وتتقطع زفرات وشوقا . ولا يهمها . كنت زوجها . أو عشيقها . أو محبها . ثم تقول لك « أنت الذى أصبت نفسك بنفسك . فأصلحها . ثم اثنى .

« ما أقل أصلها . وما أشد نكرانها للمعروف .

وإن الحديث إذ يبين أنها من ضلع أعوج ، ليصور معانى المرأة

السامية ويشير اليها بكلمة ضلع ، ويحذر من معانيها الخسيسة ، ويشير اليها بكلمة أعوج . وكانه بمجموعه يقول لنا

« اذا ابتسمت لكم المرأة ، فلا تنظروا الشفتيها ، ولكن ، استطلعوا مكنون قلبها ، واذا غضبت أمامكم ، فلا تنخدعوا لحمرة وجهها ، وانما طبقوا قوانين التصنع على حركاتها ، واذا احتاجت لشيء منكم ، أعطوه لها ، ولا تنتظروا منها جميلا

« مكنون(١) القدر يوضح بعض أسراره للبشر ، فالسعيد من يوحيه اعتبر ، والهالك الحزين ، من لأمره ترك ، ومن زجره فر

. . .

« يالها من مادة حارة ، انصهرت فى ثناياها عزيمة الأنسان ، وذابت فيها صلابته ، ولولا انتفاعها بعاطفته وطفولته لمحقتهما محقا ، وسحقتهما سحقا

. . .

« أيتها المرة ، ليكن مثلك كحديقة مفعمة بالزهور والورود ، بولكن مكتوب بجوارباها ، من أرادنى فليشتم رياحينى ، ولايلمسها يديه ، ويا أيها الآباء ، فساد المرأة منشؤه اليكم ، واصلاحها ، عائد

---

(١) هو النبي صلى الله عليه وسلم

عليكم ، فغلبوا فى تربيتها جانب العقل على جانب العاطفة ، وحين تربون انظروا الى مادة المعانى الرفيعة ، واقتبسوا منها

ويا أيها الشباب عاملو المرأة على أنها معنى من المعانى ، أو فكرة من الأفكار .

فكما أنكم تحرصون على سمو معانيكم ، وجمال تصويرها ، وتحافظون على حسن النطق بها ، وتخير اللفظ لها .

كذلك يكون شعوركم نحو المرأة .

هـــلال الربيع

هجع الكون هجعته : ونشر الكرى أجنحته . واسود إهاب الليل وحلك الظلام : وسرت فى الفضاء الرهبة ، وعمقت الوحشة : وعمّ السكون العميق .

النـــاس يستوحون أحلامهم ، والطير يتخيل غدواته وروحاته والبلابل صامتة لتغنى ، وحفيف النسيم ينعس حينا ، ويستيقظ أحيانا وصمت البادية بين الرقة والرهبـــة.فهو رائع ومريع وبشرة الرمال هفهافة جميلة كأنها طليت بمادة ملساء : أسكنتها وسوتها ، وحباته يتداخل بعضها مع بعض : مخافة أن يصيبها شىء من أذى هؤلاء الناس الذين كانوا يمرون فوقه ، ويغوصون بأقدامهم فيه . وذرّات الفضاء تنبعث من مكان إلى مكان عادتها فى كل وقت ، وطبيعتها فى كل ليل لتتلمس الأخبار ، وتستطلع الخفايا ، وتنشد الجمال .

ولكن الوجود يسمع همساً عجيباً يحمل نبأ غريبا ، يقول غداً سيطلع الربيع : وسيكون شهراً فذاً ، لأنه سيولد فيه تاريخ الإنسانية وقائد البشرية وسينبث فى الأرض نور الهداية ، وكوكب الإصلاح

وستزين الأرض وتبتهج وتكون عالما من المعانى العلوية : وظلالا من الأخلاق الربانية .

ستنتقل به الأرض من مادتها وإن بقيت فى حروفها . وستقول للسماء لا تفخرى على باسمك ، وكواكبك . وأملاكك . فسيوجد فى أصلك ، ونبع إشراقك ومصدر نورك . ألا وهو محمد صلى الله عليه وسلم .! !

وطلع الهلال فى قبة السماء وأطل على الأرض وحياها بابتسامته النحيلة الضئيلة . وكانت تحية فيها معانى الغبطة والارتياح ، وفيها معانى الجلالة والقوة كأن وراءها سراً رهيباً . يجب أن يقدر ويبجل . ويجب أن يفكر فيه : وينظر اليه . ويبحث عن حقيقته ، كما كان فيها معانى الرثاء والاشفاق لما على الأرض حينذاك من ظلمات وجهالة .

بهجة تبشر ببهجة : وجديد يمهد لجديد : وراء(١) تدعو لزايها وهلال يرحب بهلال الأرض . أليس فى هذا سر عجيب وأمر غريب .

وتحس آمنة بشىء كانه خيال سار يجرى فى عقلها . ثم يظهر لها كأنه انتقل إلى أحشائها ، فتعلم بأنه ليس بخيال ، ويحتاط بها نور ينبثق ، وأشعة تلمع . وأضواء تسطع تراها بعينها ، وتحسها بقلبها وتكاد تلمسها بيديها . ويهدأ الناس من حولها وهى لا تريد أن تهدأ ولا تريد

---

(١) الهلال فى أوله يكون على صفة راء . ولأن النبى نور ناطق كان أزيد فهو بالنسبة للراء زاى .

أن تتحرك . وإنما يحلوا لها ويلذ ، أن تذهب بفكرها وتسكن بجوارحها وترهف عقلها وشعورها وإحساسها لهذا الشعور الغريب .

ويقبل الفجر فتنتقل آمنة من عالم التصورات . إلى عالم الإخراج ومن عالم الخيالات إلى عالم الحقيقة : وتذهل لما تراه . وتغمض عينيها فتبصره ببصيرتها ويزداد وضوحه عن الحالة الأولى : ثم تقوم من ذهولها وتصحو من غفلتها وتستيقظ من سنتها فتجد بجوارها إنها وسيد الكون محمداً صلى الله عليه وسلم .

ما أبدع الخواطر تتحد ، وما أجمل مصادفات القدر تتجمع . فيتولد منها السرور والنشوة وهل ولد محمد فى الربيع إلا ليكون رمزاً على أنه سيكون ربيع الوجود وزينته ، وهل ولد فى مكة ، إلا ليكون النقطة التى تمتد منها السعادة الى العالم (١) كالقلب يوزع الحرارة على ماحوله . وهل ولد فى يوم الاثنين إلا لينبه الغافلين بأنه الحلقة التى لا يمكن أن يستغنى عنها فى دائرة العالم ، فقد يستغنى عن طرفى الدائرة ، ولكن لا يمكن بحال أن يستغنى عن وسطها . وهل ولد فى وقت الفجر إلا ليكون نقطة الفصل بين حوالك الظلمات ، وبهاء النور ، وهل ولد يتيما إلا ليكون دليلا على أنه وحده عالم كامل سيأتى بدين كامل ، وسيعقب تاريخا كاملا . وهل ولد شاخصا ببصره

---

(١) فلقد قيل إن مكة فى وسط الدنيا .

إلى فوق(١) إلا ليبين بأن العاقل الأريب هو الذى لايقتصر بفكره على الأرض . وانما يجنح بتفكيره الى عالم الأرض وعالم السماء .؟؟ دنيا تكون داخل دنيا ليعمل بهما القدر عملين عظيمين ولكى يستطيع أن يجارى الناس على اختلاف حالاتهم وتمايز صفاتهم . فمن كان من الناس رفيعاً فى خلقه ، ساميا فى طباعه ، نبيلا فى مقاصده . حوّل اليه القسم العظيم من النبى . وهو السماحة واللين ، والهدوء والدعة والسلامة والطمأنينة . ومن كان عكس ذلك ، حوّل اليه مجرى البشرية الذى فيه ، لكى يقابل الشر بجنسه : والحرب بمثلها ، والصدود بجفوته ليهلك من هلك عن بينة : ويحيا من يحيا عن مثلها : وان الله سميع عليم .

« وابتدأت نفوس قريش . السكرى بخمرها ، الغارقة فى أوهامها ، الحيرى بأصنامها ، تشم للخمر رائحة من جديد . وتتلمس فى الأصنام معنى جديداً ، وتفهم للاوهام حقيقة جديدة ، « لمحت هذا كله فى ذلك الصوت الذى كان ينبعث إليهم من محمد ، ويصل الى آذانهم ، فكانت تجد له رنة أيما رنه ، وحلاوة لا تماثلها حلاوة ، ونغمة لا تشابهها نغمة ، من هو محمد ؟ انه الرجل الذى يقول للوجود ، أنا لا أخاطب مفرداتك ، فحين أكلمك أكلم جمعك ، وللسماء أنا منك ، وأنت منى ، فالبعد بيننا بعد أشباح ، وللارض غذيني بحبك ونباتك ،

---

(١) لقد أيد هذا بعض الآثار الصحيحة

وأنا أغذيك بفضائلى وقوانينى ، وللنفوس ، طاوعينى ، وأنا أكفل لك سعادتك التى لا تزول ولا تفنى ، وللاصنام ، لا تغرنك كثرة أتباعك ، ولا جلبة أصواتهم ، فسينكشف اليوم الذى يلصقك ومتبعيك بالتراب :

« وتم معنى النبى من جهة الدنيا بزواجه لخديجة ، وتم معناها من جهة الحياتين بزاجها له

جهتا السعادة تتحقق فى جانب هذه البشرية الكريمة ، وتتأرجح فى قلبه السليم الحى . وضميره البرىء الخالص ، لتقول له ، أنا رهن إشارتك ، فإذا أردت أى شىء فقل لى

« وتهيأ النبى لربه ، بتعمقه فى عزلته ، ووصوله اليه من جانب قلبه فأقبل عليه ربه ، واختاره الرسول الأمين ، وأرسله بشريعة جاهد لها وكافح ، وصبر وصابر ، وناضل وواصل حتى كونها ، وجعل خلاصتها التواضع فى غير ذلة ، والأنصاف فى غير ظلم ، وتقدير النفس فى غير كبرياء ، ومعرفة الله ومراقبته فى كل وقت وحين .

. . .

« اننا لو نظرنا الى هذه المبادىء الأربعة ، وأفضناها على أعمالنا وقيدنا بها جوارحنا ، لاستطعنا أن نثل أنفسنا ، ونخرجها من هذه

الورطات المظلمة ، ولقدرنا أن نساير غيرنا من الأمم ، ونخطو الى الأمام بأوسع قدم .

* * *

« اللهم فوفقنا للخير ، وقو عزائمنا على الاصلاح ، وانقلنا الى يوم جديد .

ياهلال الربيع ، ما أجملك ، وما أبهاك .

عظمت شهرا ، وسموت قدراً ، ونبلت بدرا

هلا تزف الينا بشرى كما زففت الى مكة ؟

فلقد أصبح حال المسلمين اليوم قريبا من حالها !

الجوهرة المكنونة

لاتسبح بفكرك ولاتذهب بخيالك فليس هذا الشيء من ذهب ولا من لؤلؤ وانما هو عقيدة المرء وعزيمته ، تنبعث فيه منذ يولد وتلازمه حيثما نشأ وترعرع ، فأول ما تهديه اليه أن اللبن هو غذاؤه . وأن أمه هي كل شيء . فإذا كبر نفثت في لسانه النطق باسم أبيه . على أي لغاته : فإذا درج : بثت فيه معنى الحياة : وأطلعته على النافع منها والضار : فإذا استوى : أمرته بعمل الأول وهجر الثاني : وقالت له ، الآن آن لك أن تعرف : أين مكاني فيك : وما الغرض من وجودي معك : وما الحكمة في ملازمتي لك : فأن أحييتني فيك : فنفسك أحييت : وان أمتّني : فذاتك أمتك : وشعورك أذهبت : ومعانيك الحية فقدت : وبخصائصك البشرية طوحت

وهي نبض حي : يأبى الخنوع والاستكانة : وصمت مسيطر : فيه قوة البركان المنفجر : وقرار دائم الحركة : لايهدأ : حتى يهجع صاحبه الهجعة الأخيرة : وناموس ثابت : لا يقبل التغيير ولا التبديل : وميثاق مأخوذ : ومطالب بصفائه وتنفيذه ، وحياة معنوية ، فيها لذتها وقيمتها لو فهمت وقدرت

، وأليق ما يسمى بها ، سمو العظمة .

لاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء . جهادهم فى سبيل الله ، واقدامهم على الموت من غير مبالاة . هو العظمة ، وعقيدتهم التى توحى اليهم ذلك : حتى يشهد لهم ربهم وينزل خلودهم من سمائه هو سموّها . احرص على الموت توهب لك الحياة .

لسان ينطق بهذه الكلمة ، ويبعثها الى الوجود هو العظمة : وعقيدة تعمل بها وتطبقها على جوارحها : هى سموّها .

اللهم أعز الإسلام بعمر

رجل ترسل إليه هذه الكلمه من أصدق صادق فى الوجود ، وأعظم متكلم ، هو العظمة ، وعقيدة لا تشمخ عند سماعها ، ولا تغالى فى كبريائها ، هى سموّها

« واذا ، فليست هى لسانا يثرثر ، ولا مظاهر خداعه ، ولا ملابس فضفاضة ، ولا تكلف يتطبع ، ولا حركات تقلد ، ولا نظرات يحافظ على رفعها وانخفاضها ، وانما هى ذلكم المعنى يرتسم فى قلبك فيوضح ، لك ، ان هذه الدنيا لا تستحق عملا ، وان مظاهرها ، لا تساوى عناء ، وأن ذاتها لا يجهد فى تحصيلها عاقل ولا يتعب لنيلها رجل . ورسالة المرء ، يجب أن يكون أولها الرفعة ، وآخرها الخلود ، لأنها لا تلقى الا على جانب الروح ، وهى من القسم الأزلى القديم

« أجل ، ان الرجل الذى تتمثل فيه العقيدة الحقة ، فيخضع لها ،

ويستحي من مخالفتها : يكون الدم الذى إذا فار : لايهدأ : حتى ينصر مافار له : وغضب من أجله : والذى إذا سكن : لايتحرك إلا لأهانة عرض أو كرامة : أودين أو وطنية .

ويكون العين التى تنظر فى ظواهر الأشياء حقائقها الباطنة : فتقتبس عبرتها : وتفض الطرف عن بقيتها : ويكون اللسان الذى لاينطق إلا بالحق : ولا يتفوه إلا بالجد : ولايبسم إلا للترويح . أو مجاراة الأقدار . ويكون الشخص الذى يقول للمستحيل : قف مكانك : ولا تبرح : وإلا . ازلتك من الوجود وبذلك كله : يكون السهم النافذ الغريب : لأنه سهم من لحم ودم .

« وإنك لتراه . فلاتحسب أنك أمام من اهتزت له البقاع : وقامت له الأرض وقعدت : لأنه عرف كيف يعامل نفسه : وكيف يسيطر بالحق لا بالباطل : كانه يريد أن يقدم مهر ظهوره . خفاءه وعدم التكلم بلسانه .

ولا أدل على ذلك من هذا الرجل يقابل ابن الوليد . فيسأله . أين خالد : فيقول له . وماذا تريد منه . إنه شخص كشخصى وقامته كقامتى وبيته كبيتى .

* * *

« صلصلة السيوف مفزعة فى ذاتها : مرهبة فى حقيقتها : مرعبة

لناظر بها : لأنها هى التى تجتطف الرؤوس من أجسادها : وتنتزع اللحم من أعصابه : وترفع الروح إلى عليائها . وتجعل الانسان القوال جثة هامدة . ولكن صاحب العقيدة يرى هذا كله : محتم الوقوع . ضروريا منه . لأنه من لابدّات الحياة . وبهذا تزول صعوبته : ثم يقارن بين حاليه . قبلها وبعدها ، فيرى أنها هى السلم الوحيد الذى ينقله إلى رضوان الله ، ونعيمه وحناته . وحورها وأنهارها . وعسلها المصفى . وبهذا يستسيغها . ثم يقول فى نفسه : خفاء عقيدة . وخفاء عمل . هذا لن يكون . لابد من إظهار أحدهما ، والعقيدة لاتظهر . فلا مناص من الثانى وبهذا يقدم على الموت ، ويخوض غماره ويبحث فى طلبه ، ويناز ع الحياة فى نصيبها ، هادئا مطمئنا . وبهذا تنشر ذكراه وتردد الألسنة إسمه مدى الزمان .

. . .

ولولا أنها تعلم علما يساوى ذاتها ، أن القدر لايريد من جهاته المغيبة . إلا النفع للانسان ، والخير الشامل له ، والحياة السعيدة لعالمه وإن خفيت حكمته عن حدوده ودائرته ، لقالت له ، لاتخضعن ولو للقدر ، وهل بغيرها يقدم الحى على أسنة الرماح غير هياب ولاوجل لا والله ، ولو كان هو فرعون البشر ؟

. . .

« قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها

ولو أمعنت لرأيت الفرق شاسعاً بعيداً ، بين رجل أحيا عقيدته فيه ، فكان الأسد الصهور ، يتمشى فى الصحراء ، فيلحق مايبصره على الرمال ، بالرمال نفسها ، ثم يقول لعقله ، ماعليك إلا أن تفكر وأنا الذى أقدم لك ما تريد

وبين رجل أمات عقيدته فيه ، فلا تراه الا خائفا من ظله ، متلجلجا فى كلامه لا يقدم على أمر الا إذا شاور التردد ، ولا يجزم برأى الا تركه مريضا للوهن ، ولا يقطع بحالة الا أبصرت قلبه فيها

* * *

« أنت على هامش الوجود ، وظاهر الطبيعة ، ما أنت غير متمسك بها فاذا أظهرتها فى محيطك كنت الشهم الذى يهمس بالكلمة ، فتفعل فعلها ويحدث الحركة ، فتصعق لها النفوس ، وتهتز من أجلها القلوب .

* * *

« إيه أيتها العقيدة .

لقد أصبحت الآن مختفية من جهتيك ، ذاتك وآثارك ، ولقد زورك التفاق بآثامه ، وأحاطك بسياجه المنيع ، واضطربت فى ثناياه كما يضطرب الغريق فى لجة البحار الخضمة ، وكنت منتظرة أن إنسان

اليوم ينفذك مما أنت فيه ، ولكنه آه ، تعاماك ، وتغافل عنك ، وتحاشاك ، وجعلك فى طرف لسانه تقبلين كل كلمة تخرج منه ، وكان عذره الوحيد إليك ، أنك أصبحت كلمة ، واللسان هو أداة الكلام كما تعرفين

ما أشبهك اليوم بأمسك فى الجاهلية ، وما أشبه آثارك بآثارها أيتها العقيدة ، أنت فى زمن لا يقدس إلا المظاهر

فأما أن تظهرين ، وإما أن ترضين ، بما أنت فيه ، حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا

بين الرياض

ماخلق الله بشراً إذ خلق ، إلا وفيه الشعور بالجمال والحب للتجمل والارتياح لاجتلاء الطبيعة ومحاسنها . ولولا الجمال وبهاؤه : ماهدأت الروح فى جسمها لحظة ولا تحملت ظلمته طرفة ، ولا سكنت فى هيكله لمحة ، ألا تراها حين يذبل الإنسان ، فيمرض شعوره : ويقل إحساسه وتنعدم عاطفته . وتجمد حيويته ، تعمل هى على أن تفارقه ، فتشل حركتها فيه ويكثر ضعفه ووهنه ، وهزاله ونحوله . ثم تفارقه فيصبح جثة كالثرى .

وهل الجمال رسول الروح ، أو الروح رسول الجمال . ؟

سؤالان يحتاجان إلى تمحيص وتدقيق ، ولا تظن أن هـذا يخرجهما عن دائرة الجمال ، فإن الجمال الحق هو الذى يفرض عليك سلطانه ، فتراه ببصرك ، وتفكر فيه بعقلك ، وتستهويه بقلبك ، وتسكب فيه شعورك ، وتفيض عليه حساسيتك ، وتتعمق فى ذلك ، حتى تصل إلى حقيقته ، وهنا تعرف الجواب عن هذين السؤالين ، ولعلك تهتف حينئذ ، ليس السلطان هو الذى يجلس على كرسيه ، وحدوده مملكته ، وإنما السلطان الجدير . هو الذى تراه فى كل وردة

وكل بسمة ، وكل إشراقة ، وكل لفتة ، وكل ضياء وهو الذى يذيبك ويأخذك معه ويفنيك فيه ، ويتركك أشلاء همها إثبات نفسها على الوجود . وإعلام من حولها أنها لاتزال حيّة باقية .

* * *

الصمت أقسام كثيرة . فصمت للحب أمام حبيبه ، ليترك الكلام لقلبه ، والمناجاة لنفسه ، وصمت للحزين الكئيب ليمثل حزنه : ويشيعه فيما حوله ، ويقول للحزن ، إذا أتيت فأقبل وحدك ، فلا أستطيع أن أتحملك وغيرك ، وصمت للنظرة يعبر عنه بحديث العيون : أوسهام القلوب ، وهناك . وهناك صمت كبير كبير : وتحته دوىّ جليل جليل وهو صمت الطبيعة .

إنه لصمت يحمل البلاغة بأسمى معانيها ، ويبطن الفصاحة فى أعلى تراكيبها وما اللسان حين يفصح إلا أنه يريد أن يفرج عن نفسه .

* * *

وفى خلال هذا الصمت كنا نتمشى ونترنح ، وتتمايل ونمرح حتى أوقفتنا رهبة البحر . وبسمة صفائه : فوقفنا لنفيض على أنفسنا شيئاً من بهائه ونمتع أعيننا برؤية أمواجه ، تتلاطم وتتعانق : ولتترك لعقولنا العنان فى الإعجاب بالخالق العظيم : والثناء على القادر الحكيم

* * *

يالجلال البحر . تسبح فيه بخيالك ، وتخوض فيه بعقلك . وتعوم فيه بنظرتك ، ومايعيرك نظراً ولايهتم بك أبداً ، وتوحى اليه ، إنى أحبك وأخشاك وأرهبك . ويوحى اليك : تأدّب ، فماتعودت السفسطة ولا تؤثر على الثرثرة ، وتودعه سريرتك ومكنونك وخفيك . فلايزيد على أن يرسم على صفحته شكره لك إذ جعلته موضع ثقتك ومكان تقديرك ، وتذهب اليه . وتقف على شاطئه . وتبعث تحياتك وسلامك فلايرد عليك إلا بنفس خيالك . وتقول له : أيها البحر ، إنى أنا الإنسان ، فيهمس اليك ، اصمت ، وإلا أخذت منك نصيبي . فلا تبقى إلا قبضة من التراب (١) .

* * *

وكانت جلسة ممتعة رائعة . تلك التى قضيناها على حافة البحر : حتى كنت لا أدرى ، أمزج السحر بنا فكان هو نحن ، أم مزجنا به . فكنا نحن هو ؟ وبعبارة أدق .

أرأيت كيف ينتعش جسم العاشق حين يقبل معشوقته لأول مرة كذلك كنا ننتعش نحن كلما جددنا النظرة إلى البحر . ثم أرأيت كيف تسرى قطرات الكأس فى جسم محتسيها . كذلك كان يسرى هواء البحر فى جسمينا . ثم أرأيت كيف يستمد المحب سر الجمال من عينى حبيبته ، وسرّ الحياة من شفتيها : كذلك كنا نستمد الحياة والجمال

---

(١) لان حبوية الانسان من نطفته : ولاشك أن النطفة من ماء

من هذا المنظر . ثم أرأيت كيف تفيض البالغة فى الحسن روحا من خفتها ، وروحا من روحها . كذلك كان يفيض علينا شاطىء البحر .

ثم أرأيت كيف يكون جلال صمت القمر وترقرقه أمام مناجيه كذلك كان أمامنا صمت البحر . ثم أرأيت كيف تفعل الجميلة بسحر نظراتها الفاترة المتهالكة دلالا ولكنها مملوءة بالرغبة ، كذلك كان يفعل فينا نسيم البحر أفاعيله . ثم أرأيت كيف يبتهج العاشق عندما يرى لحركاته ظلا معكوسا فى جسم حسنائه كذلك كنا نبتهج نحن عندما كنا نرى لحركات أعضائنا ظلا مرسوما فى الماء . ؟

ثم سرنا حتى زجت بنا الطبيعة فى عالم الجمال فهل تدرى ماهو ، إنه حديقة ضاحكة الربى مشرقة العناقيد لؤلئية الأزاهير . لا يستطاع وصفها لأنها كأسرار الغيب . ولا يمكن إحصاء مافيها لأنه كنجوم السماء . . ؟

وإن تعجب فعجب أن ترى هذه الطيور تغنى وتشدو فيأتى الينا تغريدها رويداً رويدا ولا يكاد يصل الينا حتى يكون مابيننا وبينه من هواء قد حمل . فولد لنا اللذة والانتعاش والمرح والهناء .

ولقد شعرنا فيها أننا لسنا قادرين على احتمال عبء الحياة الثقيلة كأن طبيعتنا خلقت من جديد فى عالم جديد أليق مايسمى به العالم المتجدد لأنه يصب فى شعوره الفينة بعد الفينة شىء من الحسن فيحدث عنده شىء من التغيير ولكنه كتغيير رجل الجنة : تدخل عليه الحور

العين فهو انتقال من بهاء إلى أبهى : ومن متعة إلى أمتع . وبتو الى درجات التغيير علينا أصبحنا سكارى وإن كنا لم نشرب زبيبا ولا خمراً فعلمنا أن رعشات المناظر الخـــلابة سرت فى أعصابنا ثم امتزجت بعقولنا . ثم تمشت هـذه الرعشات على قانون الحـديقة « التغيير والتجديد » فتغيرت فانقلبت أشعة تستضيء وتضيء : ثم رجعت الى مصدرها الحقيق فوجدته قد تغير أيضا . ووجدته أشبه بالروح الإنسانية فى نورها وصفائها وفى هـذه الحالة كانت أجسامنا تستمد منها الحياة كروح أخرى وتستمد منها الضياء كعين أخرى وخبرنى بربك اذا انسكبت روح فى روح فى نور أليست العـاقبة السكر ثم أليس السكر يكون من غير زبيب، ولا خمر . ؟

. . .

مرحى أيتها الحديقة مرحى .

سعدت نفوس تمتعت بلآليك ، وذبلت عيون لم تنظر روعة ناديك ما أنت إلا البدر قد شع ، وما زهرك إلا البرق قد لمع . وكأن جمالك قطعة من القدر ، وكأن مرآك سهم من سهام النظر إنك السلوى لكل أسى وشجن : وانك الخلاص من كل هم وحزن .

ربّاه خلقت الجمال دليلا عليك . وأوجدت فيه القدرة البالغـة لأنه منك اللهم فمتع عيوننا وآذاننا وقلوبنا بروعة الجمال وسحر الجمال وفتنة الجمال .

زهرة[1] فى رعاية الشيطان

« هبة من الله . وإن شئت فسمها زهرة . .

تلألأت لكن لتذبل . وأينعت لكن لتقطف . وفتنت بجمالها ، لكن لتطلب ، واسترعت الأنظار لتكون قبلتها ، وخلبت العقول . لتكون مطمعها ، وللزهرة أن تجمل وتتلألأ وتفتن . ما استطاعت إلى ذلك سبيلا وكل ذلك من دواعى الحسن والكمال ، إذا كان لها حرم مصون ، وحصن منيع ، فاذا أهملت حراستها ، وفرط فيها ، كان ذلك كله . وسيلة للطمع فيها ، ونذيراً لشؤم طالعها . ومبعثاً لقلقها وخوفها ، ومقدمة لخطر داهم محقق . وتصبح قبرا . ولكن من صنف جديد . .

* * *

« ولقد كانت هذه الزهرة من الصنف الأخير ، فتنافس عليها مردة الأنس وشياطينها ، وكان لابد لأحدهم أن يفوز بها ، بل كاد الأمر أن يقضى وأوشك الأمل أن يضيع . إلا إذا جدد الله .

---

(١) هى مصر بالنسبة للاحتلال الأجنبى

« إن من البلاء ما يضحك . كما أن منه ما يبكى ، وإن من البلاء بلاء يجعل المرء بين الضحك والبكاء .

« وإن الشيطان حين يريد الغزو . يغزو بخيله ورجله ، أما هؤلاء المستعمرون فقد غزوا هذه الزهرة بخيلهم وخيل أبنائها . ورجلهم ورجل نفسها . ومن هنا ولدت تلك الطوائف التى خرجتها مدرسة الاستعمار . لتشبع غرائز الأنانية الحقيرة . وخبث امبراطوريتهم العجوز .

* * *

فيا عناية الله . ها هو ذا إنسانك . أبدعته لكى ينشأ ملاكا طاهراً وصفحة نقية بيضاء ، وأسلوبا سهلا لينا ، وناموساً عاما جميلا ، ووجودا هاديا خيراً ، فاستكمل نقصه من فضائلك ثم تركها فى انهيارها حتى ذبلت فيه وطارت هربا من نواياه . ربما تتدنس بخبثه ، ويعلق بها شىء رذائله ، وتغيرها دنىء طباعه . فهل هذا يليق . ياعناية الله

« يا عناية الله ، باطل يلبس أبهى الحلل . ويطعم فيما يطعمه ، أشهى المأكولات ، وأجمل المشروبات ، ويسكن أعالى القصور ، ليرى ما يريد ، وينظر ما يبغى ويتنزه فى أجمل الرياض ، ليقطف الزهور ، ويشتم الرياحين ، ويرتع فى الفضاء ، ليرهب الغير بشموخه وكبريائه ، ويتكلم بلسان الدنيا . ومن فم الوجود : وعلى مسمع

الأقطار ، وبقصد التحدى . ومن الافتخار

« وحق موضوع فى صـــندوق ، علم مكانه ، ومحفوظة صفاته ، ويقدر اسمه ، ولـكن ، ذهب كل ذلك هباءاً ، وغطى عليه خبث الحياة ، فأهين أهله ، وغلل ذووه ، وانحصر فى دائرة العرف ، وتمشى عليه قانون التطور ، وضيعته تشويهات الحداثة المنمقة ، وكاد يمحيه أعداء الهدى والفضيلة ، وأوشك أن تمضغه أسنان متبعيه أنفسهم وينزل إلى أمعائهم ، مهضوما جاهزاً مفرقاً ، ومن هنا خلص أكثر زيته وتنكر له لذاته وتجاهله أقرباؤه ، فهل للحسرة موضع غير هذا يا عناية الله ؟؟

* * *

« ياعناية الله ، كنا نعيب العيب ، فصرنا قطعة منه ، وكنا نستبطن مايؤلم الفضيلة ، فأصبحنا نجاهر بالفسق ، بل عددنا المنكر جميلا ، فهل ياترى ، تغيرت العقول ، أم اختلفت الأبصار ، أم طمست البصائر ؟ أعاجيب الغرائب لاتنبت إلا من جنسها ، والشر اليوم من الغرابة كأنه هوى ، فأضحى لايبرز إلا مايدهش العقل ، ويذهل اللب ، ويملا فراغ الموجدة بالقلوب

شياطين الأنس يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا حتى شاهت الوقائع ، ودنف الناس بالأكاذيب ، واستولت عليهم .

الضلالات ، وملئوا بفرقعة الأباطيل ، فوقعوا فيما هم فيه ، وذلك جزاء الظالمين .

« يا عناية الله

مشكلات تلد مشكلات ، وفزع يخرج مثله ، وصدمات يفوق لاحقها مقلوها ، ونكبات فى باطن الحشا ، وقروح مسننا ولم تمس غيرنا شيء منها ، فخسرنا القانون والتطبيق ، ولطمات متتالية ، تأتى مع الشمس إحـــداها ، وتتبع الشمس مفرداتها ، ويقبل مع المساء جيوشها ، وأنباء تكلم السهم فيذهب مجروحا ، فينكأ من جهتيه ، وقدر يخاطب ، فبشرهم بعذاب أليم .

* * *

« أفى الله شك ، قيل ، لا ، فلم كان نعم فى أفى كلامه شبهة ، والا فهل إيماننا فى ألسنتنا ، أم فى قلوبنا وهل مطالبنا من كل أجسامنا ، أم من جزيئات الكل ، أم من مفردات الجزئية ، وهل أخفتنا مطامع الغرب ، أم غرب المطامع ؟؟؟

* * *

« يا عناية الله »

حتام نحاط بهذى الويلات ، وتساق الينا تلك القروحات ونخضع نحن لهذه الملمات ، ونرضى بهذه التنحلات ، إن دينا كديننا كفيل

بأن يجعلنا قبلة الأمم وان نبياً كنبينا خليق بأن ينقلنا الى أكاليل النصر ويخلق وجودنا من العدم ، وان سلفاً كسلفنا ، حقيق بأن يمدنا تاريخه أمام أمام حتى نصل الى القمم ، فمـــا لنا لانحسن التطبيق مالنـا لانحسن التطبيق ؟

* * *

« يا عناية الله

لقد أظلم اليأس قلوبنا ، ولم يجعل للرجاء مكانا نخذى من اسمك ما تتغلبين به عليه ، وأزيليه من هذه المكانة التى تشعب فيها ، والمحينا بعطفك ورعايتك ومدينا بروحك التى لاتنفد وآياتك التى خلدت حتى نمثل أنفسنا فى عالم المرئيات ونترك دنيا الأوهام والخيالات ، احتجنا احتجنا فمدينا مدينا

892.74:Sa16A:c.1
سالم ،احمد عبد الجواد
الهام الفكر
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01039287